اقرأ

طه الراوي

بغداد مدينة السلام

دار المعارف
للطباعة والنشر

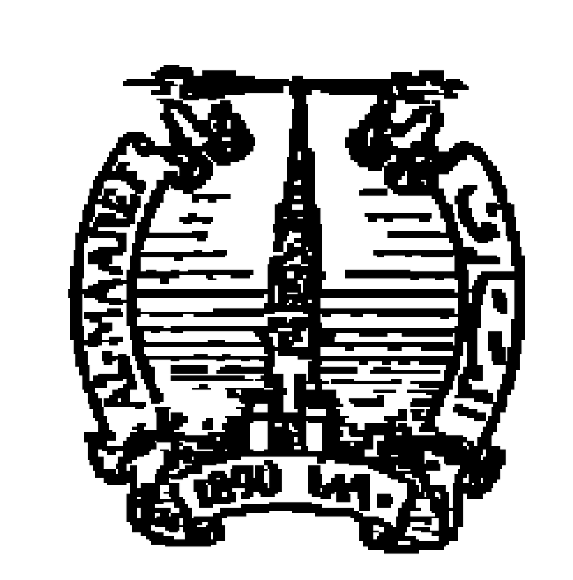
بغداد مدينة السلام

طه الراوى

بغداد مدينة السلام

اقرأ ٢٧

تصدرها دار المعارف
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وانطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف


AL-MAAREF
1890
١٨٩٠

تمهيد

بغداد :

اتفقت كلمة المؤرخين وأهل اللغة على أن لفظة « بغداد » أعجمية ولذلك اختلفوا اختلافاً كبيراً فى ضبط حروفها ، شأنهم فى الكثير من الألفاظ الأعجمية التى لا يهتدون فيها إلى أصل معروف. فقالوا : بَغْداد ، و بغداذ ، و بغذاد ، و بَغْذاذ ، و بغدان ، و بَغدِين ، ومَغدين ، و بغدام ، ومغدام ، و بغذان ، و بَهْداد . وهذا الاختلاف إما ناشىء عن أصل لفظها الأعجمى أو إنه نشأ بعد ذلك من تحريفات العامة لغرابة هذا الاسم على ألسنتهم .

وكان المتورعون من الأقدمين يكرهون إطلاق هذا الاسم على عاصمة العباسيين لما فى أصله من معنى الشرك . فزعم بعضهم أن هذا اللفظ مركب من كلمة « بغ » وهو البستان و « داد » وهو اسم صنم للعجم ، وجملة المعنى « بستان صنم » وقال بعضهم

إن « داد » اسم رجل فيكون المعنى « بستان رجل » وزعم آخرون أن « بغ » صنم و « داد » عطية والمعنى « عطية الصنم » على طريقة العجم فى المتضايفين . وزعم آخرون أن « بغ » اسم صنم لبعض العجم كان يعبده و « داد » رجل .

وقال بعض المحققين إن الاشتقاق الصحيح لهـذا الاسم جاء من الكلمتين الفارسيتين القديمتين « بغ » أى « الله » و « داد » أى تأسست أو « تأسيس » فيكون جملة المعنى « أسسها الله » أو « مؤسسة الله » .

وقال بعض الفضلاء المعاصرين : « إن اسم بغداد إرمى مبنى ومعنى ، وهو مؤلف من كلمتين من « ب » المقتضبة من كلمة « بيت » عندهم وكثيراً ما تقع فى أوائل أسماء المدن مثل بعقوبة . . . واللفظة الثانية « گداد » بمعنى غنم أو ضأن . . . فيكون مفاد « بگداد » مدينة أو دار أو بيت الغنم أو الضأن ، وحيث إنه كانت هناك سوق فمن المحتمل أنهم كانوا يبيعون فيها الغنم والضأن فى أول الأمر . »

وبالجملة فإن القول فى أصل اشتقاقها لا يخلو من الشك والتخمين ، وليس هناك كبير فائدة فى هذا الخلاف .

قال أبو حاتم السجستاني : سألت أبا سعيد الأصمعي كيف يقال بغداد أو بغداذ ؟ . . فقال : قل « مدينة السلام » .

وهو من أسمائها العربية ، وبهذا الاسم كانت تضربُ النقود العباسية . ومن أسمائها العربية « دار السلام » وفيه إشارة إلى الآية الكريمة « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » والذى يتتبع أحوال العباسيين فى صدر دولتهم ، يجد أنهم كانوا مولعين بالتفاؤل الدينى ويريدون من مدينتهم هذه أن تكون نموذجاً للجنَّة التى وعد بها المتقون ، وقد أنشأوا فيها قصراً أسموه « قصر الخلد » إشارة إلى جنة الخلد ، وآخر أسموه « الفردوس » إشارة إلى جنة الفردوس . ومن أسمائها « مدينة المنصور » ، و « الزوراء » . وكان هذان الاسمان فى أول الأمر لا يطلقان إلا على المدينة المدورة التى أنشأها المنصور أول ما أنشأ . ومن أسمائها « دار الخلافة » .

وقد صَرَّف العرب كلمة بغداد فقالوا : تبغدد الرجل إذا انتسب إليها أو تشبه بأهلها على قياس تمعدد وتعرب إذا تشبه بمعد والعرب أو انتسب إليهما .

وقال المولدون : تبغدد الرجل علينا إذا تكبر وتعاظم ، وفيه

إشارة إلى ارتفاع مكانة بغـداد والبغداديين فى تلك العصور .
و بغداد فى جميع لغاتها هذه تذكر وتؤنث فيقال هذه بغداد وهذا بغداد . وقد أخبرنى المحقق الفاضل أبو الحسنات المدرس فى جامعة فؤاد الأول أن فى الهند إمارة تحكمها أسرة ترجع بنسبها إلى بنى العباس ولا تزال تحافظ على تقاليدهم وعاداتهم ، واسم عاصمتهم « بغداد » .

خبر بنائها :

اتخذ العباسيون الكوفة أول عاصمة لهم ، ثم بنوا مدينة على مقربة من الكوفة أسموها الهاشمية . ثم أخذ المنصور يفكر فى نقل عاصمته إلى موطن يأمن فيه الفتن ويعصمه من عاديات الزمن ، فبعث الرواد أولاً ، ثم أخذ هو نفسه يرتاد موضعاً يقيم فيه مدينته المطلوبة ، فوقع اختياره على البقعة الواقعة بين دجلة شرقا ودجيل شمالا وقطربل غرباً والصراة جنوباً ، فأقام فيها أياماً ليختبر بنفسه حالة جوها وتربتها وما يتصل بذلك من العوارض ، فأسفر الاختبار عن نتائج حسنة . وكان يقوم على الموضع عدة ضياع ، منها ضيعة أو سوق يقال لها بغداد ، كان يجتمع فيها رأس كل شهر التجار ، وتقوم بها للفرس قبل الإسلام سوق عظيمة ، وقد جاء ذكرها فى تاريخ الفتوح الإسلامية سنة ١٣ هـ ، فقد ذكروا أن المثنى بن حارثة أغار على هذه السوق فى جمع من أصحابه فغنموا ما بأيدى أهلها من ذهب وفضة ثم رجعوا إلى الحيرة ، ولم يجر لها ذكر فى تأريخ الفتوح بعد هذه الحادثة إلى أن بنى المنصور مدينته عندها .

سبب الاختيار :

ذكر المؤرخون أسباباً كثيرة لترجيح المنصور هذه البقعة على غيرها ، منها اقتصادية ومنها عسكرية ومنها صحية ، فقالوا : « إن المادة تأتيها من الفرات ودجلة وجماعة الأنهار ، وتحمل إليها طرائف الهند والسند والصين والبصرة والأهواز وواسط فى دجلة ، وتجيئها ميرة الموصل وديار بكر وربيعة فى دجلة أيضاً . وهى بين أنهار لا يصل إليها العدو إلا على جسر أو قنطرة ، فإذا قطعت الجسور ونسفت القناطر لم يصل إليها العدو ، فهى قريبة من البر والبحر والجبل » . ثم هى فى أقرب نقطة بين دجلة والفرات ، ووسط بين بلاد العرب والعجم ، ثم إن العباسيين الذين قامت دولتهم على سيوف الفرس يحاولهم أن يجعلوا عاصمتهم على مقربة من المدائن عاصمة العجم القديمة .

البدء بالبناء :

قال الشيخ أبو بكر الخطيب : « وبلغنى أن المنصور لما عزم على بنائها أحضر المهندسين وأهل المعرفة بالبناء ، والعلم بالذرع

والمساحة وقسمة الأرضين ، فمثل لهم صفتها التى فى نفسه ، ثم أحضر الفعلة والصناع من النجارين والحفارين والحدادين وغيرهم فأجرى عليهم الأرزاق ، وكتب إلى كل بلد فى حمل من فيه ممن يفهم شيئاً من أمر البناء ، ولم يبتدىء فى البناء حتى تكامل بحضرته من أهل المهن والصناعات ألوف كثيرة ، ثم اختطها وجعلها مدورة . . . »

قال محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه : « ذكر أن المنصور لما عزم على بنائها أحب أن ينظر إليها عياناً فأمر أن تخط بالرماد ، ثم أقبل يدخل من كل باب فى فصلانها وطاقاتها ورحابها وهى مخطوطة بالرماد . . . ثم أمر أن يجعل على تلك الخطوط حب القطن ويصب عليه النفط ، فنظر إليها والنار تشتعل ففهمها وعرف رسمها ، وأمر أن يحفر أساس ذلك على الرسم . »

وعند ذاك ابتدىء بحفر الأساس وكان ذلك سنة ١٤٥ هـ ، فوضع بيده أول آجرة فى بنائها وقال : « بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ثم قال : ابنوا على بركة الله . »

وأقيم لها فى أول الأمر سوران قطر دائرة السور الداخلى

١٢٠٠ ذراع و ارتفاعه ٣٥ ذراعاً وعرضه من أسفله ٢٠ ذراعاً . أما السور الخارجى فعرضه من أسفله خمسون ذراعاً ومن أعلاه عشرون ، وعرض ما بين السورين مائة وستون ذراعاً . وفى كل سور أربعة أبواب بين كل باب وآخر ميل ، وعلى كل باب قبة ذاهبة فى السماء سمكها خمسون ذراعاً ، وعلى رأس كل قبة منها تمثال يتجه إلى حيث تأتى الريح ، و بين كل قبتين ٢٨ برجاً .

و بنى المنصور قصره المعروف بقصر الذهب فى وسطها ، وأقام فى صدر القصر إيواناً شامخاً وفوقه إيوان مثله ، وفوقه القبة الشهيرة المعروفة بالقبة الخضراء ، وكان ما بين الأرض وأعلى القبة ٨٠ ذراعاً . وفى أعلى القبة فارس بيده رمح يتجه إلى حيث تأتى الريح ، وهو شبيه بما يسميه المعاصرون « ديك الريح » . قالوا كانت هذه القبة تاج بغـداد وعلم البلد ومأثرة من مآثر بنى العباس عظيمة ، بنيت أول ملكهم و بقيت إلى آخر أمر الواثق ، فكان ما بين بنائها وسقوطها مائة وثمانون سنة ونيف ، وكان سقوطها سنة ٣٢٩ فى ليلة كثر مطرها واشتد برقها ورعدها .

ثم إن المنصور أقام حول مركز المدينة سوراً داخلياً ثالثاً ، فيتألف من مجموع الأسوار الثلاثة دوائر ذات مركز واحد

وهو قصر الذهب . وكان العمل فى بناء بغداد قد توقف قليلا فى بادىء الأمر عندما ظهرت ثورة العلويين فى مكة ثم فى البصرة ، فاضطر المنصور إلى توقيف العمل ريثما تمكن من التغلب على الثورتين، ثم استأنف البناء، وفى سنة ١٤٦ نزلها مع جنده ، ونقل إليها الخزائن و بيوت الأموال والدواوين، ثم استمر العمل فى البناء من غير عائق حتى تجاوز عدد العمال المشتغلين فيها مائة ألف عامل . وفى سنة ١٤٩ تم بناؤها وجميع مرافقها. وكان فى جملة من يشرف على العمل الإمام أبو حنيفة ، فقد كان ينظر فى أمر تسلم الآجر . قالوا : وكان يعد اللبن بالذرع بعد أن يأمر برصفه رصفاً معيناً . قيل وهو أول من فعل ذلك واستفاده الناس منه .

ثم أمر المنصور بإجراء الماء إليها من قناتين إحداهما من نهر دجيل الآخذ من دجلة ، والثانية من نهر كرخايا الآخذ من نهر عيسى الآخذ من الفرات ، وكانت تلك المياه تجرى فى مجار من خشب الساج ، فعل كل ذلك لئلا تدخل دواب السقائين المدينة فتلوثها .

شذرات
من سجايا البغداديين وشمائلهم

امتاز البغداديون بخلال كريمة وسجايا فاضلة يأتى فى الطليعة منها :

١ — الظرف : كان البغداديون مضرب المثل بالظَرْف فكان الناس يقولون : ظَرف بغدادى ، ولو حاول الكاتب أن يستقصى الظرفاء والظريفات من البغداديين والبغداديات لاجتمع لديه كتاب يُعَد من الطرافة بمكان ، ويكون للحسن ابن هانىء المكان الأول فى ذلك الكتاب .

٢ — الميل للطرب : عرف البغداديون بهذه الخصلة وكان الأكابر منهم يأخذون أنفسهم بضروب من اللهو البرىء — كما يقول المعاصرون — وقد رُويت روايات و بسطت حكايات فيما كان يتعاطاه الناس في بغداد من ضروب المطربات وصنوف الملهيات ، مما تكون الإفاضة فيه من قبيل وصف النْهار بالبياض .

وما عليك إلا أن ترجع إلى كتاب الأغانى لأبى الفرج الاصفهانى، وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ، والليلة الثامنة والعشرين من كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان فإنك تجد فيها ما يبهرك .

اقرأ ما قاله أبو حيان فى عُرْض الليلة التى أشرنا إليها :

« أحصينا ونحن عهدى بهذا الحديث سنة ستين وثلثمائة جماعة فى الكرخ أربعمائة وستين جارية فى الجانبين ، ومائة وعشرين حرة ، وخمسة وتسعين من الصبيان البدور ، يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة ، هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزته وحرسه ورقبائه ، وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط فى وقت . . . »

وهذا الرقم من المطربات والمطربين أوضح دليل على انصباب الناس فى عاصمة العباسيين على السماع . والكلام الذى أورده أبو حيان فى هذا الباب يشبه أن يكون منقولاً بالنص عن حكاية أبى القاسم البغدادى لأبى المطهر محمد بن أحمد الأزدى[1] أوهى منقولة عنه والرجلان متعاصران ، وليس هذا موضع الفصل فى أيهما السابق وأيهما السارق . ومن الطبعى أن تكثر فى بغداد

(١) طبع هيدلبرج سنة ١٩٠٢

وسائل الطرب و بيوت الملاهى ، لأن هذه من مستلزمات الترف والبذخ اللذين أخذت بغداد منهما أوفر نصيب ، والحضارة إذا استبحرت وتحكم سلطانها ظهر معها كل مستلزماتها حسنة كانت أم سيئة ، رفيعة كانت أم وضيعة ، وعلى كثرة ما توفر فى مدينة السلام من عوامل الترف ، ومُتع الطرب فإن ذلك لم يكن يحول بين الناس و بين التحلى بأسمى الفضائل وأسنى الشمائل .

٣ — العناية بالنظافة : كان البغـداديون مضربَ المثل فى نظافة الأجسام والثياب والمساكن والطرق والرّحاب ، ولأمر ما أكثروا فى بلدهم من الحمامات والأنهار والسواقى والبرك وكل وسائل التنظيف والتطهير والاناقة فى الملابس والمطاعم والمساكن .

٤ — السخاء والأريحيـة : والأمثلة فى هذا الباب كثيرة نجتزىء منها بالمثال التالى الذى يدل على كرم العامة . نقل عن ذى النون المصرى أنه قال : « من أراد أن يتعلم المروءة والظرف فعليه بسقاة الماء ببغداد . قيل : وكيف ذلك ؟ فقال : لما حملت إلى بغداد رُمى بى على باب السلطان مقيداً ، فمرّ بى رجل متزر بمنديل مصرى ، معتمّ بمنديل دبيقى ، بيده كيزان خزف رقاق

وزجاج مخروط . فسألت : أهذا ساقى السلطان؟ فقيل: لا ! هذا ساقى العامة، فأومأت إليه أن اسقنى فتقدم وسقانى ، فشممت من الكوز رائحة مسك، فقلت لمن معى : ادفع إليه ديناراً ، فأعطاه الدينار ، فأبى وقال: لست آخذ شيئاً. فقلت له: وَلِمَ؟ فقال :أنت أسير وليس من المروءة أن آخذ منك شيئاً . فقلت : كمل الظرف فى هذا » .

أما الخاصة فحدث عن سخائهم ولا حرج. فلم يذكر التاريخ بلداً من بلاد الله تبارى أهله فى بذل الجوائز السنية والهبات الجزيلة والعطايا السخية للشعراء والأدباء وطلاب الخير مثل بغداد، وأخبار البرامكة فى هذا الباب أشهر من أن تذكر، وهم وإن لم يكونوا بغداديِّى الطينة فإنهم بغداديو المدينة ، ولو لم تكن سوق الكرم فى بغداد رائجة يومذاك لما أقدم البرامكة وأمثالهم على ما أقدموا عليه من بسط أيديهم كل البسط ، والسوق إنما يجلب إليها ما يروج فيها ، حتى إن المعاصرين اليوم ليشكون كل الشك فى صحة تلك الأخبار التى غصت بها كتب السمر ودواوين ، التاريخ، لما فى أرقامها من الضخامة التى لا يكاد يحلم بها المفلسون من المتأخرين . وقد وقع هذا الشك لبعض الأقدمين ، فذكروا أن أحد وزراء العباسيين فى العصر الرابع قال فى مجلسه

إن هذه الأرقام من مبالغات الوراقين والأدباء الملقين تعمدوها ليصطادوا بها أموال الأمراء والوزراء و يستدروا بها أكف أولى الأريحية من الأغنياء ، وكان فى المجلس أحد الأذكياء فقال له : يا سيدى ، لماذا لا يكذب الناس على مولانا الوزير ؟ فلم يحر الوزير جواباً . و إذا كان لا بد من ذكر الأمثلة الجزئية فى هذا الباب ، فهاك مثالاً ذكره هلال بن المحسن الصابىء فى تاريخ الوزراء ، قال : « كان لأبى الحسن بن الفرات مطبخان فى داره ، فأما مطبخ الخاصة فلا أحصى ما كان يدخله من الغنم والحيوان لكثرته . . . وأما مطبخ العامة فكان يستعمل فيه كل يوم تسعون رأساً من الغنم وثلاثون جدياً ومائتا قطعة دجاجاً سماناً وفراريج مصدّرة ومائتا قطعة دُرّاجاً ومائتا قطعة فراخاً ، وهناك خبازون يخبزون الخبز السميذ ليلا ونهاراً ، وقوم يعملون الحلواء عملاً متصلاً ودار كبيرة للشراب وفيها ماذيان يجعل فيه الماء المبرد ، ويطرح فيه الثلج و يسقى منه جميع من يريد الشرب . . . ومزملات فيها الماء الشديد البرد ، و برسم خزانة الشراب خدم نظاف عليهم الثياب الدبيقية السرِيّة ، وفى يد كل واحد منهم قدح فيه سكنجبين أو جُلاب ومخوض و كوز ماء ومنديل من مناديل

الشراب نظيف ، فلا يتركون أحداً ممن يحضر الدار إلا عرضوا ذلك عليه . . . وفى جانب الدار أدراج كثيرة (من الكاغد) لأصحاب الحوائج والمتظلمين حتى لايلتزم أحد منهم مؤونة لما يبتاعه من ذلك ، وأنصاف قراطيس وأثلاث » .

وقال أبو العلاء فى بعض رسائله ما معناه : إن معارفه من البغداديين عند ما علموا بعزمه على الرجوع إلى المعرة زاروه فى مثواه وعرضوا عليه أن يقاسموه أموالهم ويخلطوه بأنفسهم ، فأبى عليه البر بالوالدة أن يجيبهم إلى رغبتهم ، ومن قوله فى هذا الباب:

وكم ماجد فى سيف دجلة لم أشم ... له بارقاً والمرء كالمزن هطالُ
من الغر تراك الهواجر معرض ... عن الجهل قذاف الجواهر مفضالُ

وأما قول ابن الوردى :

وفى بغداد أقوام كرام ... ولكن بالسلام بلا طعام
فما زادوا صديقاً عن سلام ... لهذا سميت دار السلام

فلم يحمله عليه إلا المجانسة بين السلام والسلام ، فإن الرجل كان مولعاً بهذه الضروب من البديع يصطادها أينما وجدها ، وإلا فإنه لم يزر بغداد ولا خبر شيئاً من طبائع أهلها ، ومن بديع ما يرتبط بهذه الحكاية قوله :

مرّ بنا مُقرْطق ووجهه يحكى القمر
هـــذا أبو لؤلؤة منه خذوا ثار عمر

مع أن الشيخ عمر بن الوردى من أبعد الناس عن الاتصال بالغلمان ، وما حمله على هذا الكلام إلا ولعه بالتورية .

٥ — الفصاحة : للبغداديين (ولا سيما الخاصة منهم) المقام الأول فى فصاحة الألسن ونصاعة البيان لا يدانيهم فى ذلك إلا أهل نجد وعالية الحجاز ، ولله أبو العلاء حيث يقول :

وماالفصحاءالصيدوالبدودارها بأفصح قولاً من إمائكم الوكع

وقال أخو همدان من أبيات :

فلم تر عينى مثل بغداد منزلاً ولم تر عينى مثل دجلة واديا
ولا مثل أهليها أرق شمائلا وأعذب ألفاظاً وأحلى معانيا

٦ — حسن المناظرة : كانت مجالس المناظرة تعقد فى بغداد فى مختلف الفنون وكان الناس يهرعون إليها ليطلعوا على ما يدور فيها من حسن الحوار واحتكاك الأفكار بالأفكار . وكان الأدب الرائع يسود تلك المجالس والدقة فى البحث تخيم عليها :

أدرتم مقالاً فى الجدال بألسن خلقن فجانبن المضرة للنفع[1]

---

(١) أبو العلاء

٧ — الجد والجلد فى طلب العلوم : كان البغداديون موصوفين بالجلد والجد فى طلب العلم على اختلاف ضروبه وتنوع فروعه ، وقد كان سفيان بن عيينة كثير الثناء على شباب البغداديين وشدة رغبتهم فى طلب العلم ، ويفضلهم على شباب البلاد الأخرى التى عرفها فى زمانه . وقال ابن عُلَيَّة: « ما رأيت قوماً أحسن رغبة ولا أعقل فى طلب الحديث من أهل بغداد » وقال ابن عائشة : « ما رأيت أحسن من تلقف أصحاب الحديث ببغداد للحديث » .

٨ — العصبية الوطنية : كان البغداديون لا يرون بلداً من بلاد الله يساوى بلدهم أو يدانيه ، وكان أحدهم إذا فارق بغداد لا ينفك يحن إليها ويذكر مباهج جانبيها ، مما لو جمعنا بعضه لحصل لدينا باب من الأدب طريف وغرض من أغراض الشعر شريف :

أستودع الله فى بغداد لى قمراً ... بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه
ودعته وبودى لو يودعنى ... صفو الحياة وأنى لا أودعه

قال ابن جبير فى رحلته عند الكلام على بغداد يصف أهلها :
« قد تصور كل منهم فى معتقده وخلده أن الوجود كله يصغر

بالإضافة إلى بلده ، فهم لا يستكرمون فى معمور البسيطة مثوى غير مثواهم ، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلاداً أو عباداً سواهم »

شذور من أقوال أهل الفضل فيها نظماً ونثراً

لو حاول أديب أن يجمع ما ورد من ثناء أهل الفضل على بغداد نثراً ونظماً لحصل بيده مجموع طريف فى بابه ، وقد رأينا أن نحلى مختصرنا هذا بشذور من ذلك لتكون كالنموذج لما وراءها .

شذور المنثور : قال الإمام الشافعى ليونس بن عبد الأعلى : « يا يونس أدخلت بغداد ؟ » قال : لا . قال : « ما رأيت الدنيا ولا رأيت الناس » . وكان الشافعى يقول : « ما دخلت بلداً قط إلا عددته سفراً ، إلا بغداد فإنى حين دخلتها عددتها وطناً » . وقيل لأحد الفضلاء : كيف رأيت بغداد ؟ قال : « الأرض كلها بادية و بغداد حاضرتها » . وكان أبو بكر بن عياش يقول : « الإسلام ببغداد ، و إنها لصيادة لعظماء الرجال ، ومن لم يرها

لم ير الدنيا » . وقال أبو معاوية : « بغداد دار دنيا وآخرة » .

وكان يقال : من محاسن الإسلام يوم الجمعة ببغداد ، وصلاة التراويح بمكة ، ويوم العيد بطرسوس . وكان يقال : «يوم الجمعة ببغداد كيوم العيد فى غيرها من البلاد » .

وقال الجاحظ : الصناعة بالبصرة ، والفصاحة بالكوفة ، والخير ببغداد ، والتجارة بمصر .

وقال أبو القاسم الديلمى : « سافرت الآفاق ودخلت البلدان من حدّ سمرقند إلى القيروان ، ومن سرنديب إلى بلد الروم ؛ فما وجدت بلداً أفضل ولا أطيب من بغداد » . وقال أبو القاسم عبيد الله بن على الرقى : « أخذ أبو العلاء المعرى وهو ببغداد يوماً يدى فغمزها ثم قال لى : يا أبا القاسم هذا البلد العظيم لا يأتى عليك يوم وأنت به إلا رأيت فيه من أهل الفضل من لم تره فيما تقدم » . وجاء فى بعض رسائل أبى العلاء : العلم فى بغداد أكثر من الحصى عند جمرة العقبة وأرخص من الصيحانى بالجابرة (١)

(١) الصيحانى : ضرب من جيد التمر . والجابرة : المدينة المنورة ، كان يكثر فيها هذا النوع من التمر

وكان ابن العميد إذا طرأ عليه أحد من منتحلى العلوم والآداب وأراد امتحان عقله سأله عن بغداد ، فإن فطن بخواصها وتنبه على محاسنها وأثنى عليها جعل ذلك مقدمة فضله وعنوان عقله ، ثم سأله عن الجاحظ فإن وجد أثراً لمطالعة كتبه والاقتباس من نوره والاغتراف من بحره وبعض القيام بمسائله قضى له بأنه غرة شادخة فى أهل العلم والآداب ، وإن وجده ذاماً لبغداد غفلاً عما يجب أن يكون موسوماً به من الانتساب إلى المعارف التى يختص بها الجاحظ لم ينفعه بعد ذلك شيء من المحاسن . . ولما رجع الصاحب بن عباد عن بغداد سأله الأستاذ ابن العميد عنها فقال : « بغداد فى البلاد كالأستاذ فى العباد . » (١)

شذور المنظوم : قال ابن زريق الكاتب :

سافرت أبغى لبغداد وساكنها ... مثلاً قد اخترتُ شيئاً دونه الياس

هيهاتَ بغدادُ والدنيا بأجمعها ... عندى وسكانُ بغداد هم الناس

وقال منصور النمرى :

ماذا ببغداد من طيب الأفانين ... ومن منازه للدنيا وللدين

تحيي الرياح بها المرضى إذا نسمت ... وجوست بين أغصان الرياحين

(١) المراد بالأستاذ هنا ابن العميد

وقال عمارة بن عقيل اليربوعى :

أعاينت فى طول من الأرض والعرض كبغداد داراً إنها جنة الأرض
صفا العيش فى بغداد واخضر عوده وعيش سواها غير صاف ولا غض
تطول بها الأعمار إن غذاءها مرىء وبعض الأرض أمرأ من بعض
قضى ربها ألاّ يموت خليفة بها إنه ما شاء فى خلقه يقضى

وقال السرى الرفاء :

إذا سقى الله منزلاً فسقى بغداد ما حاولتْ من الديم
يا حبذا صحبة العلوم بها والعيش بين اليسار والعدم

وقال سعد بن محمد بن على الهَمْدانى :

فدًى لك يا بغداد كل مدينة من الأرض حتى خطتى ودياريا
فقد طفت فى شرق البلاد وغربها وسيرت خيلى بينها وركابيا
فلم أر فيها مثل بغداد منزلاً ولم أر فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل أهليها أرق شمائلاً وأعذب ألفاظاً وأحلى معانيا

وقال طاهر بن المظفر الخازن :

سقى الله صوب الغاديات محلة ببغداد بين الكرخ فالخُلْد فالجسر
هى البلدة الحسناء خصت لأهلها بأشياء لم يُجمعن مذ كن فى مصر

هواء رقيق فى اعتدال وصحة … وماء له طعم ألذ من الخمر[1]

ودجلتها شطان قد نظما لنا … بتاج إلى تاج وقصر إلى قصر

تراها كمسك والمياه كفضة … وحصباؤها مثل اليواقيت والدر

وقال القاضى أبو محمد عبد الوهاب المالكى :

بغداد دار لأهل المال طيبة … وللصعاليك دار الضنك والضيق

بقيت أمشى مضاعاً فى أزقتها … كأننى مصحف فى بيت زنديق

والناس يرون أن فى هذين البيتين حطاً من مقام بغداد وأنا أرى فيهما العكس لأن البلد الذى يضيق على الصعاليك وأهل البطالة هو البلد الذى يملك من الحضارة قسطاً وفيراً . وإنما يكثر الصعاليك فى البلد الخامل ، ويظهر لى أن هذا الفاضل ابتلى بداء الفقر فأعياه علاجه مع أنه كان يتحلى بأدب رائع وفضل ناصع ، فضاقت به مذاهبه وانزوت عنه مطالبه ، وهو القائل :

متى يصل العطاش إلى ارتواء … إذا استقت البحار من الركايا

ومن يثنى الأصاغر عن مراد … وقد جلس الأكابر فى الزوايا

---

(١) ولعل أبناء هذا العصر يستغربون وصف بغداد برقة الهواء وبرده مع أن هواءها اليوم شديد الحر فى القيظ . والجواب أن هذا طرأ بعد خراب المزارع والبساتين التى كانت تحيطها والأنهار التى كانت تتخللها .

إذا استوت الأسافل والأعالى   فقد طابت منادمة المنايا

وقال الحكمى وهو فى مصر يتشوق إلى بغداد :

ذكر الكرخ نازح الأوطان   فصبا صبوة ولات أوان

ليس لى مسعد بمصر على الشـ   ـوق إلى أوجه هناك حسان

نازلات من الصراة فكرخا   يا إلى الشط ذى القصور الدوانى

إذ لباب الأمير صدر نهارى   ورواحى إلى بيوت القيان

وقال شاعر العصر الرصافى من قصيدة عنوانها «سوء المنقلب» نظمها على أثر طغيان المياه فى بغداد :

بغداد حسبك رقدة وسبات   أو ما تمضك هذه النكبات

ولعت بك الأحداث حتى أصبحت   أدواء خطبك ما لهن أساة

ومنها :

إن البلاد إذا تخاذل أهلها   كانت منافعها هى الآفات

تلك الرصافة والمياه تحفها   والكرخ قد ماجت به الأزمات

سالت مياه الواديين جوارفا   فطفحن والأسداد مؤتكلات

وقال عند ما كانت الحكومة العثمانية ترسل جنودها إلى نجد على عهد الحكم الحميدى :

إليك إليك يا بغداد عنى   فإنى لست منك ولست منى

ولكنّي وإن كبر التجني يعزّ عليّ يا بغداد أني
أراك على شفا هولٍ شديد

تتابعت الخطوب عليك تترى وبدل منك صفو العيش مُرّا
فهلا تنجبين فتى أغرا أراك عقمت لا تلدين حرا
وكنت لمثله أزكى ولود

أقام الجهل فيك له شهودا وسامك بالهوان له السجودا
متى تبدين منك له جحودا فهلا عدت ذاكرة عهودا
بهن رشدت أيام الرشيد

زمان نفوذ حكمك مستمر زمان سحاب فيضك مستدر
زمان العلم أنت له مقر زمان بناء عزك مشمخر
وبدر علاك في سعد السعود

برحت الأوج ميلاً للحضيض وضقت وكنت ذات عُلاً عريض
وقد أصبحت في جسم مريض وكنت بأوجه للعز بيض
فصرت بأوجه للذل سود

حكومة شعبنا جارت وصارت علينا تستبد بما أشارت
فلا أحداً دعته ولا استشارت وكل حكومة ظلمت وجارت
فبشرها بتمزيق الحدود

وقال الأستاذ الزهاوى عليه الرحمة قبل الدستور العثمانى من قصيدة عنوانها « أيام بغداد »

أتعود بعد تصرم ونفـاد ... أيام بغداد إلى بغـداد

كانت محطاً للعلوم وأهلها ... وقرارة للمجد والأمجاد

اليوم هاتيك العلوم جميعها ... مدفونة بمقابر الأجداد

أيام مد الأمن وارف ظله ... فيها فكانت جنة المرتاد

أيام بغداد تضىء جميلة ... فتلوح مثل الكوكب الوقاد

ولبحترى العصر بمصر الأستاذ على الجارم بك من قصيدة عصماء أنشدها عند افتتاح المؤتمر الطبي سنة ١٩٣٨ ببغداد :

بغداد يا بلد الرشيد ... ومنارة المجد التليد

يا بسمة لما تزل ... زهراء فى ثغر الخلود

يا سطر مجد للعروبة ... خط فى لوح الوجود

يا راية الإسلام والإ ... سلام خفاق البنود

وهى قصيدة بارعة كل أبياتها غرر

خلاصة التاريخ السياسى لبغداد

تسهيلاً للبحث رأيت أن أقسم التاريخ السياسى لهذه المدينة إلى ثلاثة أبواب :

الباب الأول : العهد العباسى ويبتدىء بإنشاء بغداد وينتهى بسقوطها بأيدى المغول :

الباب الثانى : العهد المغولى وما أعقبه من تطورات إلى عهد الاحتلال الإنكليزى .

الباب الثالث : الاحتلال الإنكليزى وما أعقبه من تطورات

الباب الأول

إن تاريخ بغداد السياسى هو تاريخ الخلافة العباسية إن لم نقل تاريخ العالم الإسلامى خلال القرون الخمسة من سنة ١٥٠ هـ إلى ٦٥٦ هـ . وكل أثر لهذه الدولة فى تكييف الأحداث وتوجيهها يمكن أن ينسب إلى هذه المدينة ويتصل بتاريخها . وبما أن تاريخ تلك الدولة ينقسم إلى عدة أطوار تمايز بخصائص وتصطبغ بأصباغ مختلفة ، رأينا أن نوزع هذا الباب إلى خمسة فصول :

الفصل الأول

طور العظمة والازدهار (١٤٥ — ٢٤٧)

تولى الخلافة فى هذا الطور تسعة من الخلفاء أولهم المنصور وآخرهم المتوكل، ستة منهم اتخذوا بغداد عاصمة لهم ، وثلاثة انتقلوا إلى سامراء فاتخذوها مقراً، وهم المعتصم والواثق والمتوكل . وقدكان الخلفاء فى هذا الطور مصدر السلطات كلها من عسكرية وقضائية وإدارية ، فإن المنصور عندما انتقل إلى بغداد كان قد قضى على منافسيه من العباسيين والعلويين ومن القواد المدلين بخدمتهم المتعاظمين بنفوذهم . وتفرغ بعد هذا للاصلاح الداخلى فاستتب الأمن فى طول البلاد وعرضها ، واتسع العمران ، وأقبل الناس على طلب العلوم من شرعية ولسانية وكونية ، فاتسعت رقعة بغداد وازدحمت بالسكان .

وأهم مناصب الدولة فى العاصمة ، الوزارة ، والحجابة ، والكتابة ورياسة الشرطة ، والقضاء .

وهنالك منصب كبير له شأنه العظيم فى سياسة الدولة وعظمتها ، ذلك هو قيادة الجيش ، وكان هذا المنصب يعتبر فى الذروة من مهام الخلافة، وكان الخليفة هو القائد الأعظم للجيش ، وهو الذى

يصرف أموره وينظم شؤونه . وكان إليه أمر عقد الألوية وتعيين القواد وتوزيع الجيوش على الثغور والأطراف . وفى الأطراف منصب مهم هو منصب صاحب البريد ، ومهمته نقل كل مايحدث من الأحداث وما يشيع من الأخبار وما يقوم به الولاة من الأعمال ، وما يصدر من القضايا عن القضاة ، وما يحصل من الجبايات وبيان الأسعار ، إلى غير ذلك .

وكان المنصور حريصاً على اختيار عماله من قدراء الرجال وأهل الكفايات منهم ، فقد روى المؤرخون أن ابنه المهدى طلب اليه أن يعهد ببعض الولايات إلى رجل من الأشياع، ذكر أنه أخلص الخدمة للبيت العباسى ، فسأله أبوه عن الصفات الإدارية التى يتحلى بها هذا الرجل فقال : ليس له من الصفات إلا إخلاصه لبيتنا . فقال المنصور : يا بنى يمكننا أن نقابل إخلاصه لنا بإغداق النعمة عليه من مالنا الخاص، ولا يجوز لنا أن نركبه على أكتاف الرعية .

وقد توفى المنصور محرماً فى طريق الحج ليلة السبت ٦ من ذى الحجة سنة ١٥٨ هـ ودفن بثنية المعلاة على مقربة من مكة، وبايع الناس فى مكة ثم فى بغداد محمداً المهدى، فسار بالناس سيرة حسنة،

وقد ترك له أبوه فى الخزائن أموالاً طائلة مكنته من التوسع فى العمران والتبسط فى العطاء، فمالت إليه القلوب وأكبرته النفوس. ومن أهم الحوادث التى وقعت فى زمانه فى بغداد الفتك بالزنادقة وأهل الأهواء ، وقد ذهب فى غمار هذه الفتنة الكثيرون من الأبرياء ، ذلك لأنها تهمة غامضة المعالم مبهمة الأطراف .

وتوفى المهدى ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم سنة ١٦٩ ﻫ فى قرية يقال لها الروذ من أعمال ماسبذان ، وبويع ابنه موسى الهادى وكان إذ ذاك فى جرجان ، ولم تطل مدة خلافته فتوفى فى الرابع عشر من ربيع الأول سنة ١٧٠ ﻫ ، وبويع الرشيد وكان عمره عند البيعة خمساً وعشرين سنة ، وكان عظيم القدر مهيب الجانب قد حنكته التجارب ، لأنه قاد الجيوش إلى بلاد الروم أكثر من مرة ، وتولى الكثير من مهام الدولة فى حياة أبيه .

نكبة البرامكة :

ومن أهم الأحداث التى شهدتها بغداد فى عهده نكبته للبرامكة، فانه أقدم على ذلك عندما أوجس منهم خيفة على سلطانه وتطاولاً على نفوذه وميلا خفياً إلى مناوئيه من العلويين . وقد أفاض

المؤرخون باختراع الأسباب التى لا تخرج عن حدود الظنون .
ومن أعرق تلك التقولات فى الوهم حكاية اتصال العباسة بنت المهدى بجعفر بن يحيى اتصالا سرياً ، وهى حكاية رواها محمد بن جرير الطبرى عن زاهر بن حرب، وتناقلها المؤرخون فزادوا عليها ونقصوا منها ، وقد تولى ابن خلدون تفنيد هذه الحكاية فى صدر مقدمته بما لا مزيد عليه .

وعلى الجملة فإن عهد الرشيد يعتبر فى الذروة من عهود بنى العباس ، وقد وصلت بغداد فى هذا العهد إلى قمة مجدها ومنتهى فخارها ، وامتدت الأبنية فى الجانبين امتداداً عظيما حتى صارت بغداد كأنها مدن متلاصقة تبلغ الأربعين ، و بلغ سكانها نحواً من مليونى نسمة ، ودرت عليها الخيرات من جميع الأقاليم الإسلامية ، ونمت فيها الثروة نماء لامزيد عليه ، وغصت خزائن الدولة بالذهب والفضة التى كانت تنصب فيها من الأقاليم فائضة عن حاجها .

وتوفى الرشيد ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ١٩٣ فى طوس ودفن هناك . فبويع الأمين فى طوس أولاً وفى بغداد ثانياً ، عندما وصل خبر وفاة الرشيد إليها ، وهو عباسى الأبوين ، أبوه الرشيد وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، ولم يتفق

ذلك لغيره من خلفاء بنِي هاشم إلا لعلى بن أبى طالب ولابنه الحسن رضى الله عنهما .

وما كاد يتولى الأمين الخلافة حتى التف حول عبد الله المأمون — وهو وال على خراسان وسائر أقاليم المشرق — طائفة من رجالات الفرس ووعدوه بنقل الخلافة إليه ، وكان على رأس هذه الطائفة الفضل بن سهل، فأخذوا يدبرون الأمر سراً ، و يدسون الدسائس و يحوكون الشباك فى جو من الكتمان شديد، وكان مقصدهم الحقيق نقل الدولة إلى العلويين ثم جعلها فى آخر الأمر فارسية الصبغة عاصمتها مرو فى خراسان ، وشعر الأمين وهو فى بغداد بدبيب هذه الدسائس وتأكد لديه أمرها، فأخذ كل واحد من الأخوين يعد العدة للفتك بأخيه ، واتسعت مسافة الخلاف بينهما ، فجهز المأمون جيشاً لجباً بقيادة طاهر بن الحسين ثم عززه بجيش آخر بقيادة هرثمة بن أعين ، وحصلت اضطرابات وفتن فى عساكر الأمين لم يحصل مثلها فى عساكر المأمون ، وأحاط جيش طاهر أخيراً بالجانب الغربى من بغداد وجيش هرثمة بالجانب الشرقى، فوقعت بغداد فى الحصار وقاست من جرائه أهوالا يطول وصفها، فقد نصبت عليها المجانيق ، فكثر فيها التهديم والتحريق وسفك

الدماء ، وعض الجوع أهلها بأنيابه وطال عمر الحصار ولم يبق فى قوس الصبر منزع ، فجمع الأمين مستشاريه فأشار عليه بعضهم أن يتصل بهرثمة ويطلب منه الأمان لنفسه ، وكان يأمن جانبه أكثر مما يأمن جانب طاهر ، فكتب إلى هرثمة بذلك فأجابه بالإيجاب ، ولما علم طاهر بذلك أبى إلا أن يكون خروجه إليه ، فعزم الأمين على الخروج إلى هرثمة بنفسه سراً ، ولما علم طاهر بذلك أحاط قصر الأمين بكمين ، فلما خرج الأمين وركب الحراقة للذهاب إلى هرثمة وسارت به قليلا خرج ذلك الكمين وأخذ يرشق تلك الحراقة بالسهام والحجارة فانقلبت ، وحاول الأمين الرجوع إلى الجانب الغربى عوماً فتلقاه أصحاب طاهر فأسروه ثم قتلوه بأمر من طاهر ، وكان ذلك ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ١٩٨ وكانت مدة الحصار نحواً من ثمانية عشر شهراً

بويع المأمون على أثر قتل أخيه ، ولكنه لم يبرح خراسان وبقيت بغداد تئن تحت كابوس الحكم العسكرى على ما بها من أوصاب الحصار وآثار الحجارة والنار . والذى يظهر للناقد البصير أن بطانة المأمون من الفرس كانت تحاول فى طى الكتمان أن تنقل عاصمة الخلافة إلى خراسان ليتم لهم فى ذلك التغلب على

شؤون الدولة ، وأول تدبير قام به الفضل بن سهل أن حصل من المأمون على عهد بتولية أخيه الحسن العراق والحجاز واليمن ، ووجه طاهراً إلى الرقة لمحاربة أحد الخوارج هناك ، وولاه الموصل والجزيرة والشام والمغرب ، وأمر هرثمة بالعودة إلى خراسان . وشاع فى بغداد أن الفضل بن سهل قد استبد بالأمر وأخذ يبرم الأمور على هواه بعد أن أنزل المأمون قصراً حجبه فيه عن أهل بيته ووجوه قواده فأصبح فيه كالحبيس ، فاستفزت هذه الشائعة نخوة بنى هاشم وأكابر الناس فى العراق وأنفوا من ذلك واستخفوا بالحسن بن سهل ، فاضطرب حبل الأمن ودب دبيب الفتن هنا وهناك ، وبرز الكثير من الشطار وأهل الدعارة ، وعاثوا فى بغداد فساداً ، وليس لدى السلطان قوة تقدر على توطيد الأمن وإعادة الطمأنينة إلى النفوس . رأى الناس شدة هذا البلاء واستشراء هذا الداء ، فاجتمع وجوه بغداد وصلحاؤها فقرروا أن يتولى أهل كل محلة توطيد الأمن فيها والضرب على أيدى سفهائها وشطارها ، كل ذلك والمأمون فى قبضة الفضل بن سهل بخراسان لا يصل إليه من أمر بغداد صغيرة ولا كبيرة . ثم إن الفضل بن سهل ومن لف لفه طلبوا إلى المأمون أن ينقل البيعة إلى العلويين ،

فاختارو الولاية عهده علياً الرضا بن موسى الكاظم ، وأمر باستعمال اللون الأخضر شعاراً لدولته بدل اللون الأسود الذى هو شعار الهاشميين إلى عهده . فأرجف أعداء المأمون بأن اللون الأخضر يرمز إلى لون النار ، و إنما اختاره الفضل بن سهل تقرباً إلى المجوسية التى كان يدين بها من قبل وهو حديث عهد بالإسلام . بلغ خبر ذلك أهل بغداد فغضب بعضهم ورضى آخرون ، واشتد الأمر على رجالات الأسرة العباسية فاجتمعوا وقرّ رأيهم على خلع المأمون ومبايعة عمه إبرهيم بن المهدى . وكان ذلك غرة المحرم سنة ٢٠٢ ﻫ .

حصل كل هذا والمأمون فى قبضة الفضل بن سهل لا يصل إليه شىء منه ، فاتصل الإمام على الرضا بالمأمون سراً وأخبره بكل الواقع و بيّن له أن مَخْرَقَةَ ابن سهل أدت إلى كل هذه الاضطرابات ، فعزم المأمون على المسير إلى بغداد ، فلما وصل إلى سرخس أحكم تدبير الحيلة للتخلص من الفضل فدس له من قتله وهو فى الحمام . وكان ذلك فى الثانى من شعبان سنة ٢٠٢ ﻫ وتظاهر بالحزن عليه وكتب إلى الحسن أخيه بتعزية حارة وأخبره أنه صيره مكان أخيه ، وما كاد يصل مدينة طوس حتى أبلغ بوفاة الإمام على الرضا ، فشاع بين الناس أنه مات مسموماً وأن المأمون هو الذى سعى فى ذلك .

فلما قرب المأمون من بغداد وزال ما كان ينقمه الناس عليه من أمر الفضل وما كان ينقمه البيت العباسى من نقل الخلافة إلى العلويين ، اجتمع القواد والأمراء وأعلنوا خلع إبرهيم بن المهدى فاختفى . وكان ذلك ليلة الأربعاء ١٧ من ذى الحجة سنة ٢٠٣ . وفى يوم السبت ١٦ من صفر سنة ٢٠٤ دخل المأمون مدينة السلام ولا تزال الخضرة شعار دولته ، ثم بعد بضعة أيام أمر بإعادة السواد شعار الهاشمية الأول . و بوصوله إلى بغداد بعد تخلصه من ربقة ابن سهل أصبح خليفة حقاً وعاد إلى بغداد شىء من نضرتها وروائها .

وقرّت قلوب كان جماً وجيبها ونامت عيون كان نزراً هجوعها

واتخذ مقره فى الجانب الشرقى، ومنذ ذلك الحين استقر الخلفاء فى هذا الجانب . وكان قد سافر إلى الشام ومصر ثم عاد إلى غزو الروم .

وأدركته منيته غازياً فى ١٨ من رجب سنة ٢١٨ فدفن فى طرسوس، وعهد بالخلافة من بعده إلى أخيه المعتصم ، وكتب له فى عهده وصايا تعد من أنبل ما يوصى به الحكماء الإخوان والأبناء ، وكرر له العناية فى أمر الرعية وأمر العامة منهم قبل الخاصة ، بأن

ينصف مظلومهم ويضرب على يد ظالمهم ويسعى جهده لنشر العدل وإفاضة الرفاهية عليهم .

ولم يكن المعتصم رجلا بعيد النظر فسيح رقعة التفكير ، وكل ما فيه من المزايا أنه كان شجاعاً يحب الشجعان ويعتز بهم ، وقد أكثر من الغرباء ولا سيما الترك فى جنده ، وتمرد عليه بعض جيشه منذ أول الأمر فاضطر إلى التخلص منهم بالتبعيد والتشريد وبالقتل أحياناً كما فعل بحيدر المعروف بالأفشين ، فإنه اضطر إلى إحراقه مصلوباً ، وهذا الجيش الذى ألفه وإن كان قد أذل الأعداء خارج الدولة إلا أنه قد أذل مع ذلك الرعية فى داخل البلاد

وفى يوم الخميس لثمان مضين من شهر ربيع الأول سنة ٢٢٧ توفى المعتصم فى سامراء ، وكان قد عهد بالخلافة إلى ولده هرون الذى لقب بالواثق بالله .

* * *

تولى الواثق بالله الخلافة وحالة الجند على ما علمنا وقد توطدت أقدام القواد الغرباء الذين اصطنعهم المعتصم وصاروا أصحاب نفوذ عظيم فى الدولة ، وكانوا على ما بهم من غطرسة وخشونة ، قدراء على توطيد الأمن فى الداخل كما كانوا قدراء على بعث الخوف

فى قلوب الدول المجاورة المناوئة للمملكة الإسلامية فى الخارج .

مات الواثق يوم السبت لست ليال مضين من ذى الحجة سنة ٢٣٢ ، ولم يعهد بالخلافة لأحد من بعده، فاختار كبراء الدولة وفيهم أحمد بن أبى دواد القاضى — وهو من سراوات العرب وكبار علمائها — جعفر بن المعتصم ولقبوه بالمتوكل على الله ، وكان شاباً بعيد الهمة ماضى العزيمة قوى الشكيمة ، نظر ما حوله من الأجناد فرأى أن أكثريتهم من الأعجام الذين لا يوثق بإخلاصهم ، ولا يؤمن جانبهم فى الملمات ، فالتفت إلى العرب من حوله فلم يجد منهم العدد الوفير الذى يحتاج إليه، لأن الحروب قد أكلت أكثرهم والفتن قد اصطلمت زهرتهم ، ففكر أن ينقل عاصمته إلى الشام فيصطفى من أبناء الشام ومن أبناء الأعاريب هنالك جيشاً يفل به غرب هؤلاء المماليك المتغطرسين والجفاة المتغلبين ، فشخص إلى دمشق سنة ٢٤٣ ونقل إليها دواوين الملك ، ففطن رؤساء الأجناد من الأتراك إلى مقصده، فدفعوا الجند إلى الشغب فاندفعوا يطالبون بأرزاقهم وأعطياتهم فأجابهم إلى ذلك، ورأى أنه إن استمر على الإقامة فى دمشق استمروا على إحداث الاضطرابات والإكثار من المشاغبات ، فأظهر أن هواء البلد وماءه لا يوافقان مزاجه ،

وأن الأطباء أشاروا عليه بالنقلة فرجع إلى سامراء . ولا شك عندنا بأن الأجناد من الأتراك هم الذين حملوه على العودة إلى سامراء للحيلولة بينه و بين تنفيذ ما عزم عليه من إنشاء الجند العربى ، و إلا فدمشق من أعذب بلاد الله ماء وأرقها هواء .

وكان المتوكل يكثر من شرب النبيذ فتفلت منه بعض الأسرار ، فظن المنتصر أنه يريد تأخيره وتقديم أخيه المعتز عليه فتمالأ مع بعض الناقمين من الأتراك واتفقوا على اغتياله ، فأعدوا لذلك قوماً دخلوا عليه وهو على شرابه فقتلوه ، وحاول الفتح بن خاقان الدفاع عنه فقتلوه أيضاً ، وكان فى المجلس أبو عبادة البحترى و يزيد المهلبى الشاعران المعروفان ، فاختبأ أحدهما خلف الباب والثانى فى الشاذروان ، وفى ذلك يقول البحترى قصيدته المشهورة التى جاء فيها :

لنعم الدم المسفوح ليلة جعفر   هريق وجنح الليل سود دياجره

صريع تقاضاه السيوف حشاشة   يجود بها والموت حمر أظافره

وفيها يقول :

ولو كان سيفى ساعة الفتك فى يدى

دری الفاتك العجلان كيف أساوره

وفيها يشير إلى غدر المنتصر :

أكان ولى العهد أضمر غدرة فمن عجب أن ولى العهد غادره
فلا مُلّىَ الباقى تراث الذى مضى ولا حملت ذاك الدعاء منابره

وقال يزيد المهلبي من قصيدة يرثى بها المتوكل وينعى بها على بنى العباس نبذهم العرب واصطفاءهم مماليك الترك :

لما اعتقدتم أناساً لا حلوم لهم ضعتم وضيعتم من كان يُعتقدُ
ولو جعلتم على الأحرار نعمتكم حمتكم السادة المذكورة الحُشُدُ
قوم هم الجذم والأنساب تجمعهم والمجد والدين والأرحام والبلد
إذا قريش أرادوا شد ملكهمُ بغير قحطان لم يبرح به أود

وباغتيال المتوكل ختم هذا الطور وطويت آخر صفحة من صفحات العظمة التى كانت تظلل خلائف بنى العباس .

الفصل الثانى

استئثار الجيش بالسلطة (٢٤٧ — ٣٣٤)

اختلف على كرسى الخلافة فى هذا الطور ثلاثة عشر خليفة وفى هذا الطور تفاقم تحكم الجنود فى سياسة الدولة واستهانوا بما للخلافة من حرمة ، فراحوا يبايعون ويخلعون ، وينصبون ويعزلون ، تبعاً لأهوائهم وحسبما توحى إليهم مصالحهم الخاصة

أما مصالح الشعب فانها لا تكاد تخطر لهم على بال، و إذا تضاربت مصالحهم وتصادمت مطامعهم فزعوا إلى سيوفهم فحكموها فى حل مشاكلهم .

ولما رأى الخليفة المستعين أن القوم لا ينتهون من فتنة إلا إلى أخرى ، انتقل بالفريق المخلص من جنده إلى مدينة السلام وأمر باقامة الأسوار على الجانبين ، وقصده أجناد سامراء فحاصروا بغداد فامتنعت عليهم فى أول الأمر ، ولكن الخليفة المستعين لم يلبث أن استكان بعد مرور سنة على الحصار ، فخرج من الرصافة بقصد الفرار فوقع أسيراً بيد أعدائه ، و بعد أن استنزلوه عن الخلافة قتلوه. وبايعوا المعتز بن المتوكل ، و بذلك عاد كرسى الخلافة إلى سامراء ثانية ، وعاد الأجناد إلى شغبهم وهراشهم ، فلما طال ذلك بينهم وخشى عقلاؤهم أن يتفانوا عن آخرهم ، قرّ رأيهم أن يكون على رأسهم أحد أقرباء الخليفة ليكف بأس بعضهم عن بعض ، فرأى المعتمد أن يعهد بهذا المنصب إلى أخيه طلحة الموفق، فعهد إليه بذلك ، وولاه معظم الأقاليم التابعة للدولة حتى أصبح الخليفة الحقيق ، وكانت كلمته هى العليا ، ولم يبق بيد المعتمد إلا الخطبة والسكة والاسم .

وفى هذا الطور استخف أمراء الأطراف بأمر الخلافة فى المركز، فاستبدوا بما تحت أيديهم من ولايات واستقلوا بها ، ولم يبق للخلافة فيها إلا العلاقات المعنوية ، وفى هذا الطور أيضاً كثرت الفتن الداخلية فكانت ثورة الزنج فى البصرة وما يليها من أرض السواد ، ولم يتم القضاء عليها إلا بعد خطوب وحروب أسفرت عن خراب البلاد وانطماس أعلام الحضارة فيها ، وكذلك اضطرمت بلاد العرب بفتنة القرامطة التى استشرى شرها ، وتطاير شررها فأتت على معالم العمران فى الجزيرة العربية وما يليها من أطراف العراق والشام . ومن أهم الأحداث أيضاً نقل الخليفة المعتضد مقر الخلافة من سامراء إلى بغداد ، فعاد لبغداد مركزها السياسى الأول .

وفى هذا الطور اضطرمت فتنة ذهب ضحيتها أكبر أديب عباسى ، ذلك أن بعض أهل الحل والعقد رأوا أن يخلعوا المقتدر لصغر سنه ، ويبايعوا عبد الله بن المعتز لمكانته فى الأدب وحصافة الرأى ، فثار عليه خدم المقتدر وحشمه واضطروه إلى الفرار والاختفاء ، وانتهى الأمر بالقبض عليه وحبسه وتعذيبه حتى مات. وكذلك قتل معه جميع أعوانه و بطانته .

وفى عهد الخليفة الراضى أحدث منصب أمير الأمراء وهو منصب مهم يخطب لصاحبه على المنابر ، و إليه المرجع فى كبير أمور الدولة وصغيرها ، وأول من تولاه محمد بن رائق ، وصارت أموال الدولة تحمل إلى خزائنه فيتصرف بها كما يريد وينفذ للخليفة ما يريد ، وكان هذا المنصب السبب فى كثرة النزاع بين الطامعين من رجال الدولة . من ذلك أن رجلا يقال له البريدى أحد عمال الأقاليم جهز جيشاً فغزا به بغداد فى دجلة واحتلها فى ١٢ من رمضان سنة ٣٢٩ فاضطر الخليفة إلى أن ينتقل إلى الموصل وفيها بنو حمدان وعلى رأسهم ناصر الدولة ، فاستنجده لطرد البريدى من بغداد ففعل ، وعلى أثر ذلك قلده إمارة الأمراء ، وكانت مدة احتلال البريدى ثلاثة أشهر وعشرين يوماً ذاقت بغداد خلالها ألواناً من العسف والنهب والتدمير وهتك الحرمات مما يطول وصفه .

الفصل الثالث

العهد الديلمى (٣٣٤ — ٤٤٧)

أصل بنى بويه من بلاد الديلم الواقعة فى الجنوب الغربى من شاطىء بحر الخزر ، وكانوا على المجوسية إلى أن اتصل بهم الحسن بن على الزيدى العلوى الملقب بالأطروش ، فأسلم منهم على يده

خلق كثير وتمذهبوا بالمذهب الزيدى . و بلاد الديلم و إن كانت تعد فى جملة الولايات الفارسية قبل الإسلام إلا أن أهلها ليسوا من الفرس فى الصميم ، و إنما هم جيل لهم مميزاتهم الخاصة ، وقد بسط بنو بو يه سلطانهم على إيران كلها . وفى خلافة المستكفى كان يتوزع الحكم فى مملكتهم ثلاثة إخوة : على وهو أكبرهم، والحسن وهو أوسطهم ، وأحمد وهو أصغرهم .

وفى ١١ من جمادى الأولى سنة ٣٣٤ وصل أحمد بن بو يه مدينة السلام إجابة لدعوة تلقاها من قواد بغداد ، ومثل بين يدى الخليفة فاحتفى به ، فبايعه أحمد وحلف له يمين الطاعة وحلف الخليفة لأحمد يمين الإقرار له على السلطنة .

فأنعم الخليفة عليه بلقب « معز الدولة » وعلى أخيه الكبير بلقب « عماد الدولة » وعلى الأوسط بلقب « ركن الدولة » ، ولم يثبت معز الدولة على وفائه بيمينه للمستكفى سوى أربعين يوماً فخلعه و بايع المطيع لله . و بمعز الدولة هذا ابتدأ العهد البويهى ، فتعاقب على الحكم فى بغداد من ملوكهم أحد عشر ملكا ، آخرهم خسرو فيروز الذى لقب نفسه بالملك الرحيم .

وفى عهد بنى بو يه وصل العلم والأدب فى بغداد إلى القمة العليا ،

فنشأ أكابر المفسرين والمحدثين والفقهاء والمتكلمين والمؤرخين والكتاب والشعراء وأساطين علوم العربية والحذاق فى المعارف الكونية . وبالجملة فإن المعارف التى تم غرسها فى عهد المنصور والرشيد والمأمون أزهرت فى هذا العصر وآتت أكلها يانعاً شهياً . وكان لبعض ملوكهم آثار فى العمران وحسنات على أهل الفضل وأقمار الأدب ، ففى عهدهم تولى الوزارة فى إيران أبو الفضل بن العميد وابنه أبو الفتح والصاحب بن عباد ، وفى بغداد أبو محمد المهلبى الذى أفاض على رجالات العلم والأدب سيباً من حسناته وفيضاً من نعمه . على أنه لا ينكر أن القوم أيقظوا الفتن المذهبية ونفخوا فى نارها حتى أخذ بعض المسلمين يستحلُّ دم بعض .

وفى زمن حكمهم امتحنت بغداد بشتى المحن التى منها طغيان المياه عليها واختلال الأمن داخلها وخارجها ، وتفاقم أمر المجاعات فيها ، واستيلاء رجال الجند على الضياع والقرى ، والتضييق على الفلاحين مما لا عهد لهم به فى صدر الخلافة العباسية ، وفى آخر عهدهم أمر الخليفة القضاة بترك القضاء والفقهاء بترك الفتيا ، محتجاً بذلك على جرائم اقترفها أجناد الديلم وعجز ملكهم عن معاقبتهم بسببها .

الفصل الرابع

العهد السلجوقى (٤٤٧ — ٥٥٢)

السلاجقة ينتسبون إلى جدهم سلجوق ، وهو ينتمى إلى قبيلة كريمة كانت تقطن تركستان ، وسلجوق هو أول من آمن من رجالها . وأول من استولى على بغداد من هذه الأسرة طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق على أثر اختلال حكم البويهين فيها ، وذلك أن مملوكاً تركياً من مماليك الديلم يقال له أبو الحارث أرسلان البساسيرى ، عاث فى العراق فساداً وكاتب الفاطميين فى مصر ، فالتجأ الخليفة القائم إلى مهارش بن المجلى أمير العرب فحمله إلى عانه فبقى فيها حولاً كاملاً .

وفى ذلك العهد دخل طغرلبك بغداد وقتل البساسيرى وأعاد القائم إليها ، ولم يتخذ ملوكهم بغداد مقراً لهم وكانوا يكتفون بإرسال من ينوب عنهم .

وقد عانت بغداد فى عهدهم هذا حصارين الأول سنة ٥٣٠ فى عهد الخليفة الراشد بأمر الله ، دام نحو شهرين وانتهى بفرار الخليفة إلى الموصل ، وكان القائم بهذا الحصار السلطان مسعود

السلجوقى ، والثانى فى خلافة المقتفى سنة ٥٥١ والقائم به محمد بن أخى السلطان مسعود ، ودام أكثر من ثلاثة أشهر ، وفى هذا الحصار أبلى البغداديون بلاءً حسناً ، فردوا السلطان ومن معه بغيظهم لم ينالوا خيراً .

ومن أعظم ملوك السلاجقة الذين زاروا بغداد ملكشاه بن ألب أرسلان ، زارها مع وزيره الأعظم الحسن بن على الملقب بنظام الملك ، الذى حاول أن يصل البيت العباسى بالبيت السلجوقى بأواصر المصاهرة ، فعقد للخليفة المقتدى على ابنة السلطان ملكشاه

ولهذه المصاهرة مثل سابق فإن السلطان طغرلبك زوج ابنته للخليفة القائم ، وحاول أن يتزوج هو نفسه من ابنة الخليفة فكان له ما أراد بعد ممانعات ومراجعات كادت تؤدى إلى مخاصمات لا يعلم مدى أثرها إلا الله .

الطور الأخير

٥٥٢ — ٦٥٦

لم يبق فى يد الخلفاء من تلك المملكة المترامية الأطراف فى هذا العهد إلا بغداد وأعمالها وقليل مما يتصل بها .

وقد طالت مدة خلافة بعض الخلفاء حتى ضربت الرقم القياسى على حد تعبير كتاب العصر — فقد كانت مدة خلافة الناصر لدين الله ٤٦ سنة وعشرة أشهر و٢٨ يوماً وهى أطول مدة حكم فيها خليفة عباسى ، وما ذلك إلا لخلو بغداد من الأجناد الأتراك والديلم وغيرهم من أهل الشغب ورواد الفتن، ثم لم يبق فى يد الخلفاء ما يحسدون عليه .

وكان الخلفاء فى هذا العهد ميالين إلى نشر العدل والترفيه على الرعية برفع كثير من المكوس والضرائب ، كما كانوا ميالين إلى إقامة دور العلم والمساجد والملاجىء الخيرية .

وفى هذا العهد استفحل أمر المغول فى ديار فارس وغيرها ، كما اشتدت قبل ذلك وطأة الصليبيين فى ديار مصر والشام، فأصبحت ديار الإسلام بين قوتين هائلتين كأنهما كانتا على ميعاد .

وكانت خاتمة هذا العهد الكارثة التى أودت بالخلافة وبالمدنية والحضارة على ما سيأتى فى الباب التالى :

الباب الثانى

العهد المغولى وما أعقبه من تطورات إلى الاحتلال الانكليزى

٦٥٦ — ١٣٣٥

ينقسم هذا الباب إلى خمسة فصول :

١ — العهد الهولاكى

٦٥٦ — ٧٤٠

المغول جيل من الترك يقطنون فى بلاد تركستان ، وقد نشأت بينهم وبين التتر — وهم من الترك أيضاً — حروب طاحنة ، فنشأ فى ظل هذه الحروب رجل من المغول يقال له تموجين عرف بعد ذلك باسم جنكيزخان ، فنظم تموجين أمر المغول وأعدهم للفتح والتغلب، ولما حضرته الوفاة سنة ٦٢٤ أوصى بتقسيم مملكته بين أبنائه الأربعة وهم : جوجى وجغطاى وأوكداى وتُولى وكان يقدر لهم أن يملكوا الدنيا . فكانت من حصة ولده تُولى، خراسان وما يؤمل الاستيلاء عليه من ديار بكر والعراقين إلى منتهى حوافر خيول المغول ، وكانت حدود مملكته تتاخم العراق ، ولما توفى سنة ٦٥٤

خلفه فى مملكته ابنه هولاكوخان الملقب بإيلخان ، ولذلك تسمى دولته بالإيلخانية ، وفى سنة ٦٥٦ نزل هولاكو على بغداد وحاصرها ، فكانت حروب وكانت خطوب اندلعت فى أثنائها نيران فتن داخلية انتهت باستيلاء التتر عليها وبقتل الخليفة المستعصم وأولاده ورجال حاشيته وأهل بطانته ، وباستباحة بغداد مدة طويلة ، ولم يسلم من الناس إلا من قدر على الاختفاء بمواطن لم تصل إليها عيون المغول ، وكانت بغداد حين حاصرها القوم غاصة بأهل الأطراف من الذين أجفلوا أمام الجيش المغولى ظناً منهم أن العاصمة تعصمهم ، فكانوا فيها لحماً لسيوف المغول الذين لم يرحموا شيخاً ولا طفلا ولا امرأة ، وبهذا أفلت شمس الخلافة العباسية فى بغداد بعد أن أشرقت عليها أكثر من خمسة قرون ، وكان أفولها كارثة على الأمم الإسلامية كافة وعلى العرب خاصة ، بل على الشرق كله ، بل على المدنية والحضارة ، لأن المغول لم يكونوا يحملون يومذاك قلوباً تنبض بالرحمة ولا رءوساً تعقل للمدنية معنى . وكان كل ما يتميز به أولهم أنهم لا يفرقون بين دين ودين ولا بين مذهب ومذهب ، فكل الأديان والمذاهب لديهم متساوية ، وقد نجم عن ذلك أنهم سلطوا بعض رجال الأقليات

المتميزين ببعض المواهب على حكم الأكثريات مما لا عهد للبغداديين به من قبل . وأبقى هولاكو فى أول الأمر الأوضاع الإدارية فى بغداد على النمط العباسى تقريباً مع اختصار فى بعضها ، وأبقى أكثر المناصب الإدارية بيد الموظفين السابقين من العراقيين ليستفيد من خبرتهم وسابق تجاربهم فى جباية الضرائب والمكوس وتنظيم الأعمال ، ورتب من قبله جماعة من الرقباء والأمناء ليشرفوا على كل شىء ، وبذلك أصبحت حكومة بغداد مدنية تحت إشراف حكومة عسكرية . على أن هولاكو لم يلبث أن حول نظره عن الموظفين العراقيين إلى موظفين من الإيرانيين ، فعهد بمنصب الوزارة فى بغداد إلى علاء الدين الجوينى سنة ٦٥٧ ، وكذلك عهد بكثير من المناصب الأخرى ببغداد إلى رجال من أهل فارس ، وبذلك خسر العراقيون مكانتهم التى كانوا يحتلونها فى الدولة ، كما خسروا عزتهم وحريتهم . ولكن بغداد لم تخرج عن كونها حاضرة لمدن العراق العربى . وتعاقب على الحكم فيها من رجال الدولة الإيلخانية ثلاثة عشر ملكاً وملكة واحدة هى « صاتى خان » التى حكمت بغداد سنة ٧٣٩ وأول من أسلم من ملوك هذه الأسرة أحمد بن هولاكو، وكان

اسمه قبل إسلامه « توكدار » . وقد تمرد عليه ابن أخيه أرغون واستولى على بغداد فأرهق أهلها عسراً وأوسعهم ظلما، ثم تمكن من التغلب على عمه والاستيلاء على ملكه . وفى عهدهم ضربت الأوراق النقدية المعروفة بـ « چاو » فحدثت فى بلادهم أزمة نقدية اهتزت لها أركان الحالة الاقتصادية ، ولكن بغداد سلمت من شر هذه الأزمة . وفى سنة ٦٩٤ أسلم غازان بن أرغون أحد أحفاد هولاكو ، وكان لإسلامه رنة استحسان فى بلاد الإسلام ولا سيما فى بلاد فارس ، وكان متزوجاً بعدد من نساء أبيه على طريقة المغول، وكان شديد الحب لواحدة منهن يقال لها «بلغان خاتون» فقيل له : إن الإسلام يحرم نكاح زوجات الأب فهمّ بالردة ، ولكن أحد العلماء أفتاه بصحة ذلك وقال له : « إن أباك كان على الكفر ولم يكن زواجه شرعياً فلا يمنعك مانع من أن تعقد أنت عليها الآن » ، فسكن قلب غازان إلى هذه الفتوى وبقى على الإسلام ، ومنذ ذلك الحين فشا الإسلام فى المغول . وزار غازان هذا بغداد عدة مرات فشمل أهلها بلطف لا عهد لهم به من أسلافه، وهو الذى أمر بضرب الدراهم والدنانير على مقاييس معينة ليتعامل الناس بها عداً لا وزناً ، وأمر بتوحيد المكاييل والموازين

والأطوال . ويقرن بعض المؤرخين اسم غازان باسم محمود ، ولعله اختار لنفسه هذا الاسم بعد إسلامه .

وفى ٧١٨ حدث غلاء فى بغداد اضطر معه الناس إلى أكل الجيف ، وباع الفقراء أولادهم ليسدوا رمقهم بأثمانهم . وفى سنة ٧٣٩ استولت الأميرة (صاتى) بنت خدابنده على الملك ، وهى أول مرة تكون فيها بغداد خاضعة لمملكة تملكها امرأة ، وخطب لها على المنابر فى بغداد وغيرها .

٢ — العهد الجلائرى

٧٤٠ — ٨١٣

وجلائر إحدى قبائل المغول الكبرى نشأ فيها قواد معروفون اتصل بعضهم بآل جنكيزخان ، ومن أشهر الذين ارتقوا مكاناً عليًّا على عهد الدولة الإيلخانية الشيخ حسن بن الأمير حسين الذى انتهز فرصة الضعف فى الدولة الإيلخانية فوثب على ملكها واستولى على بغداد سنة ٧٤٠ .

ومن أشهر ولاة بغداد على عهد هذه الأسرة أمين الدين مرجان ابن عبد الله مملوك أويس ، وأصله من بلاد الروم ، وهو منشىء المدرسة والجامع المعروف اليوم بجامع مرجان .

وعلى عهد هذه الأسرة غزا تيمورلنك بغداد أكثر من مرة ، أولاها سنة ٧٩٥ وكانت وطأته عليها هذه المرة خفيفة على خلاف ما عهد فيه من القسوة والغلظة . قيل : إنما فعل ذلك ليستميل إليه البغداديين الذين ضجروا من عسف الشيخ أحمد الجلائرى، بل زعم بعض المؤرخين أن البغداديين هم الذين راسلوا تيمور وطلبوا إليه القدوم ليخلصهم من جور السلطان أحمد . ثم عاد إليها السلطان أحمد بعد ابتعاد تيمور عنها ، فغزاها تيمور ثانية سنة ٨٠٣ وفتحها عنوة وفتك بأهلها هـذه المرة فتكا ذريعاً ، واستحل جنده المدينة أسبوعاً كاملا اقترفوا فيه من المنكرات ما يقشعر له جلد الإنسانية .

ولما توفى تيمورلنك سنة ٨٠٧ عاد السلطان أحمد الجلائرى إلى بغداد فملكها سنة ٨٠٨ ، وكانت بين السلطان أحمد و بين السلطان قره يوسف التركمانى فى أول الأمر ألفة انقلبت بعد ذلك إلى وحشة انتهت بقتل السلطان أحمد واستيلاء قره يوسف على ملكه سنة ٨١٣ فأرسل السلطان يوسف ابنه محمداً للاستيلاء على بغداد فسدت أبوابها فى وجهه ، وكان يدير أمرها دوندى خاتون بنت السلطان حسين بن أويس الجلائرية ، فلما علمت أن لا قبل لها

بمحمد شاه احتالت للخروج من بغداد خلسة ، ولما علم البغداديون بذلك فتحوا أبواب المدينة للفاتح الجديد سنة ٨١٤

٣ — العهد التركمانى

٨١٣ — ٩١٤

القبائل التركمانية تنشعب عن القبائل التركية الكثيرة العدد ، ومواطنهم الأصلية بين بلخ و بحر الخزر وديار الروس و إيران ، وأكثرهم فى الأصل أهل خيام يعيشون عيشة البداوة ، وكانت بعض بطونهم تقتنى الشياه السود فلقبوا بذلك فأطلق عليهم اسم « قره قوينلو » و بعضهم يظن أن شارة الشاة السوداء التى كانت على أعلامهم فى قديم الدهر هى السبب فى هذا اللقب .

وممن اشتهر من رجال هذه القبيلة السلطان قره يوسف المذكور الذى استولى على ملك السلطان أحمد الجلائرى كما مرّ آنفاً ، وفى سنة ٨٢٣ توفى الأمير قره يوسف ، ولما شاع موته طمع الناس بابنه محمد شاه صاحب بغداد . وفى سنة ٨٣٦ تمكن قائد يقال له إسبان من الاستيلاء على بغداد خلسة وفرّ منها السلطان محمد شاه ، ثم كانت بينهما حروب انتهت بقتل السلطان محمد شاه سنة ٨٣٧

فى بلدة الشيخان ، وكانت سيرته فى صدر المدة التى حكم فيها بغداد محمودة ، ولكنه فى السنين الأخيرة من حكمه ضعف واستكان واختلت الأمور عليه ، وفى يوم الثلاثاء ٢٨ من ذى القعدة سنة ٨٤٨ توفى الأمير إسپان فى بغداد وكان له ولد صغير اسمه فولاذ استقر رأى الأمراء والحاشية على توليته وحكم بغداد باسمه ، ولم يكن إسبان يمت إلى قره قو ينلو بنسب وكان شديد الوطأة على الناس ملحاً فى جمع المال ، و بعضهم ينطقه أصبهان . ولعل الأصل كذلك فحرفته العامة ، وانتقل أمر بغداد بعده إلى شبه الفوضى ، ولم يزل التنازع قائماً بين المتغلبة ، و بغداد تتحمل أثقل أعباء هذا النزاع إلى أن تسلط عليها جهانشاه ابن السلطان قره يوسف سنة ٨٥٠ وولى عليها ولده محمدى ميرزا ، وكان صغيراً فعهد بتدبير المملكة إلى الأمير عبد الله ، وفى ١١ من رمضان سنة ٨٥٢ عزل السلطان جهانشاه ابنه محمدى ميرزا وعهد بولاية بغداد إلى ابنه پيير بوداق فأقام بها مدة ثم سافر إلى تبريز ثم عاد إليها مراغماً لأبيه جهانشاه فجهز أبوه جيشاً كثيفاً وحاصره فيها سنة ٨٦٩ فدام الحصار نحواً من سبعة عشر شهراً، أخرج فى أثنائها پيير بوداق أكثر سكان بغداد إلى خارج السور بعد أن صادرهم ونهب ما عندهم ، وانتهى

الأمر بتسليم المدينة إلى جهانشاه وقتل ولده پير بوداق سنة ۸۷۰، فولى على بغداد پير محمد الطواشي ورجع إلى تبريز فحصلت بينه و بين السلطان حسن الطويل من قبيلة آق قوينلو ـ تركمانية أيضاً ـ وقائع انتهت بقتل جهانشاه سنة ۸۷۲ ، فسار حسن الطويل نحو بغداد وحاصرها في ۲۰ رجب سنة ۸۷۲ وكان فيها پير محمد الطواشي الذي ولاه جهانشاه . وفي ١٥ من رمضان ترك حصار بغداد وذهب إلى تبريز . وفي ٢ من رجب سنة ۸۷۳ توفي بير محمد الطواشي والي بغداد وأوصى بالولاية إلى حسين بن علي بن زينل وكان من أهل السيرة الحسنة والأخلاق الفاضلة . وفي ٢ من ربيع الآخر سنة ٨٧٤ توفي حسين بن علي وخلفه أخوه منصور بن زينل وتوفي في العام نفسه ، وفي ١٤ من جمادى الآخرة سنة ٨٧٤ استولى جيش السلطان حسن الطويل على بغداد بقيادة ابنه مقصود ، و بذلك ابتدأ حكم الدولة التركمانية الثانية المعروفة بآق قوينلو ، وكانت تحكم بغداد بواسطة ولاة تعينهم ، وكان أكثرهم من أبناء السلطنة ، وكانت بغداد تدار على وجه يشبه الاستقلال أو ما يسميه أبناء هذا العصر « اللامركزية » ، ويقال في سبب تسميتها « آق قوينلو » ما قيل في قره قوينلو ، وكانت تقيم في جهة

ديار بكر . وأول من اشتهر من رجالها فى التاريخ السياسى أحمد بك و پيير على بك وقره عثمان ، وهو من مشاهير الشجعان ، ثم حفيده حسن الطويل بن على الذى استولى على بغداد وكان مشهوراً بالعدل والشهامة وشدة البأس فى الحروب ، وباستيلائه على بغداد استولى على العراق كله كما كان قد استولى على الكثير من بلاد إيران ، واستقر الأمن وسادت الطمأنينة فى بغداد وماحولها . وفى ٢٧ رمضان سنة ٨٨٢ توفى السلطان حسن الطويل وخلفه على الملك ولده الأكبر خليل . وفى سنة ٨٨٣ قتل السلطان خليل وخلفه على الملك أخوه يعقوب بك ، وكان على بغداد وال اسمه « گلابى » فعزله السلطان يعقوب فى ١٥ من ذى الحجة سنة ٨٨٣ وفى ١١ من صفر سنة ٨٩٦ توفى السلطان يعقوب وخلفه على الملك ابنه بايسنقر . وفى سنة ٨٩٨ قتل بايسنقر واستولى على الملك رستم بك وتوفى رستم فى شهر ذى القعدة سنة ٩٠٢ وتولى مكانه أحمد بادشاه ، وكان رستم هذا شديد الميل إلى النساء فاستولين على عقله وعبثن بإدارة ملكه . ولم يزل أمراء آق قوينلو يقتتلون فيما بينهم حتى ظهرت الدولة الصفوية عليهم وغلبتهم على أمرهم .

٤ — العهد الصفوى

٩١٤ — ٩٤١

غزا الشاه إسمعيل بغداد سنة ٩١٤ وفتحها عنوة ، والشيخ اسمعيل الصفوى مؤسس الدولة الصفوية ورجلها الأول يمت بنسبه إلى الشجرة العلوية وكان آباؤه من أهل التصوف والإرشاد وكذلك كان هو . ومن هذا الطريق تمكن من جذب الأعوان وجمع الجيوش، فأسس دولة كان لها الأثر البارز فى سياسة الشرق عامة و إيران خاصة . وفى سنة ٩٠٦ استولى على تبريز وصار ملكا عليها ، و بعد فتحه بغداد على يد قائده « لالا حسين » أظهر فيها من التعصب المذهبي ما لا يليق بسيد علوى ، و بعد زيارة العتبات المقدسة رجع إلى عاصمة ملكه فى إيران ، و بذلك التهبت نار الأحقاد المذهبية ، وانقسم الناس شيعاً ، منهم من يؤيد الشاه إسمعيل ، ومنهم من يؤيد خصومه فى المذهب ، فكانت بينه و بين الأتراك العثمانيين وقائع كثيرة وملاحم ذهب ضحيتها عشرات الألوف من المسلمين يستحلُّ بعضهم دم بعض ، ويسبي بعضهم حرم الآخرين ، وفى سنة ٩٢٠ وقعت بين

الفريقين ملحمة تعد الفاصلة فى بابها تعرف بوقعة « جلدران » كان النصر فيها حليف السلطان العثمانى، والخذلان قرين الصفوى. وفى سنة ٩٣٠ توفى الشاه إسمعيل ، وكانت بغداد قد استقلت عنه فى حياته عند ما شعر الناس بضعفه وخوره أمام الجيش العثمانى فى وقعة چلدران ، استقل بها قائد يقال له ذو الفقار ، وساس أهلها سياسة حسنة ، وذو الفقار من أمراء الدولة الصفوية انشق عليها ، وخلفه على حكم بغداد « محمد خان تكلو » واستمر هذا فى الحكم حتى ٢٤ من جمادى الأولى سنة ٩٤١ حين وصل جيش السلطان سليمان العثمانى بغداد وفتحها .

٥ — العهد العثمانى

٩٤١ — ١٣٣٥

عندما انتزع العثمانيون بغداد من يد بقايا الصفويين عمدوا إلى رم الأضرحة المهدمة فيها وإصلاح الكثير من شؤون المدينة، ومنذ ذلك الحين صار العثمانيون يرسلون الولاة لإدارة شؤونها . وفى سنة ١٠٣٣ عاد الصفويون فامتلكوا بغداد ثانية وبقيت بأيديهم إلى سنة ١٠٤٨ ، فاستعادها السلطان مراد الرابع بجيش

قاده هو بنفسه، وأعاد ترميم جامع الحضرة الكيلانية وجامع الإمام أبي حنيفة وغيرهما من المعابد والأضرحة التى امتدت إليها يد الهدم والتدمير من قبل عمال الشاه عباس . وقد هبطت بغداد تحت ضغط تلك الفتن المتوالية والحروب المتعاقبة إلى الدرك الأسفل من الانحطاط ، حتى زعم بعضهم أن تعدادها كان فى بعض الأحيان لا يتجاوز ١٤ ألف نسمة ، ثم أخذت بالانتعاش حتى بلغ تعدادها فى أوائل العصر الثالث عشر الهجرى ١٥٠ ألف نسمة ، ولكن طاعونا أعقبته هيضة ورافقهما طغيان دجلة والفرات انتابت بغداد فهلك فيها نحو من أربعة أخماس سكانها . وكان العثمانيون يعهدون بادارتها إلى ولاة ينصبونهم من قبلهم . وقد كانت البصرة على الأغلب تابعة لبغداد ، بل كانت ولاية بغداد تشمل جزءاً من كردستان وخوزستان والجزيرة والعراق العربى طولها ٨٩٠ كيلومتراً وعرضها ٥٥٠ كيلومتراً ، وعدد سكان هذه الولاية نحو من المليونين ، ومعنى هذا أن بغداد فى كل عهودها لم تزل حاضرة العراق وأم مدنه . وتعداد الولاة الذين تولوا حكمها وشرح أعمالهم و بيان مدة حكم كل واحد منهم أمور يطول شرحها ، ولا يتسع لها هذا المختصر. على أنه لا يفوتنا أن نذكر بعض الولاة

الذين لهم فيها آثار مهمة لا تزال شاخصة إلى عهدنا هذا . و يأتى فى مقدمتهم سليمان باشا وداود باشا ومدحة باشا. أما سليمان باشا فأكثر إصلاحاته كانت تتصل بالمعابد والمراقد والمدارس، وأما داود باشا (١٢٣٢ — ١٢٤٢) فيرجع إليه الكثير من الإصلاحات فى المعاهد العلمية والمعابد وشق بعض الأنهار و بعث النهضة العلمية من مرقدها و إغداق النعم على رجالات العلم والأدب، وله الوقوف الكثيرة فى هذه السبيل. وقد ألف الشيخ عثمان بن سند البصرى العَنَزى المتوفى سنة ١٢٥٠ كتاباً حافلا بأخبار داود باشا بدأ فيه بسنة ولادته وما أعقبها من السنين وما حدث من الأحداث المهمة فى تلك المدة ، وأسماه « مطالع السعود فى أخبار الوزير داود » وكذلك فعل الشاعر المعروف الشيخ صالح التميمى، فجمع كتاباً حافلا فى أخبار هذا الوزير ومدائحه أسماه « وشاح الرود والجواهر والعقود » . أما الوالى مدحة باشا (١٢٨٥—١٢٨٨) فقد كان عهد ولايته مشحوناً بالأعمال الجسام فإنه تمكن فى خلال مدة ولايته القصيرة على بغداد من فرض التجنيد الإجبارى و إنشاء دائرة النفوس ودائرة الطابو ، و إنشاء مطبعة الولاية وجريدة الزوراء تكتب بالعربية والتركية، و إنشاء مصنع للنسيج

تابع للجيش أسماه « عباخانة » ، ومد خط التلغراف ، وأنشأ ترامواى الكاظمية ، ومدرسة للأيتام أسماها مدرسة الصنائع ، ومدارس أخرى حديثة ، وأنشأ الكثير من مبانى الدولة ، كما أنشأ دائرة الموصلات النهرية وضم إليها الكثير من البواخر فى دجلة والفرات ، وأحدث كثيراً من الأوضاع العصرية فى دواوين الحكومة . وفى زمنه قدم ناصر الدين شاه إيران لزيارة العتبات المقدسة فاحتفى به مدحة باشا احتفاء رائعاً وأظهر مدينة بغداد وما حولها بمظهر مشرق جذاب . ولا يزال أشياخ البغداديين الذين شهدوا تلك الزيارة يذكرون مدحة بالإعجاب والإكبار . ولم يأت بعده من ولاة الأتراك من حذا حذوه ، أو قارب خطوه ، وآخر ولاة الأتراك على بغداد هو القائد خليل باشا الذى سقطت بغداد فى عهده بيد الإنكليز[1] .

---

(١) نحن مضطرون من الآن أن نستعمل التاريخ الشمسى الميلادى الغريغورى لأنه أصبح التاريخ المستعمل فى الشؤون الرسمية

الباب الثالث

عهد الاحتلال الإنكليزى وما بعده

فى اليوم الحادى عشر من شهر آذار سنة ١٩١٧ الموافق ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٣٥هـ دخل الجيش الإنكليزى مدينة السلام ونشر القائد العام بلاغاً جاء فيه ما معناه أن الجيش الإنكليزى لم يدخل العراق غازياً قاهراً وإنما جاء محرراً ، ولا غرض له إلا إبعاد الجيش التركى عن البلاد ، وإن الانكليز يرغبون كل الرغبة فى مساعدة العرب على إحياء مجدهم وإنشاء دولتهم . ومنذ ذلك التاريخ صارت بغداد تدار إدارة خاصة . وفى ٣٠ تشرين الأول سنة ١٩١٨ عقدت الهدنة بين الإنكليز والعثمانيين وفى ٣٠ تشرين الثانى سنة ١٩١٨ طلب الإنكليز إلى العراقيين أن يجيبوا عن الأسئلة الثلاثة التالية بواسطة منتدبين اختيروا لهذا الغرض والأسئلة هى :

(١) هل ترغبون بحكومة عربية مستقلة تحت الوصاية الإنكليزية يمتد نفوذها من أعالى شمال الموصل إلى خليج فارس ؟

(٢) هل ترغبون أن يرأس هذه الحكومة أمير عربى ؟

(٣) من يكون ذلك الأمير الذى تختارونه ؟

فكان الجواب فى بغداد والكثير من أصقاع القطر إبداء الرغبة فى إنشاء حكومة عربية مستقلة يرأسها أحد أنجال الملك حسين بن على . وفى أواخر حزيران سنة ١٩٢٠ اندلعت نار الثورة العراقية المعروفة ، فعرف الإنكليز حينئذ أن العراق لا يمكن إخضاعه بالقوة ، فقرروا إنشاء دولة عربية يرأسها رجل عربى يختاره العراقيون .

وفى ٢٥ نيسان سنة ١٩٢٠ انتزع الإنكليز من مجلس عصبة الأمم صك الانتداب الذى جاء فيه « الاعتراف بالعراق دولة مستقلة بشرط قبولها المشورة الإدارية والمساعدة من قبل دولة منتدبة إلى أن تصبح قادرة على القيام بنفسها ... » فعهد إلى السيد عبد الرحمن نقيب الأشراف فى بغداد أن يؤلف حكومة مؤقتة لإشراك العراقيين بإدارة المملكة من جهة ، وللاشراف على تمهيد الطريق التى يتوصل بها الشعب العراقى إلى إبداء رأيه فى شكل الحكومة التى يرغب فيها .

وقد كتبت فى الثورة كتب خاصة وأفرد لها فصول فى كتب لا يتسع هذا المختصر لشرح تفاصيلها .

ووقع اختيار العراقيين على سمو الأمير فيصل بن الملك حسين ابن على ، فكتبوا إلى والده جلالة الملك حسين يطلبون إليه أن

يسمح له بالسفر إلى العراق فأجاب رغبتهم ، وسافر الأمير فيصل فوصل البصرة فى ٢٠ حزيران سنة ١٩٢١ ثم قصد بغداد فاستقبل استقبالا حافلا لم تشهد مدينة السلام نظيره منذ أجيال ، وجرى استفتاء عام فى العراق فأسفرت النتيجة عن اختياره ملكا دستوريا على المملكة العراقية ، وأعلن ذلك باحتفال رائع فى ٢٣ آب من السنة المذكورة .

وفى ١٠ تشرين الأول سنة ١٩٢٢ تم الاتفاق بين الفريقين على المعاهدة على ألا تكون نافذة إلا بعد موافقة المجلس التأسيسى عليها .

ولم تزل تستقيل وزارة وتتألف أخرى إلى أن تم جمع المجلس التأسيسى فى ٢٧ آذار سنة ١٩٢٤ ، فنظر فى لائحة القانون الأساسى وفى لائحة قانون الانتخابات فأقرها ، كما نظر فى المعاهدة العراقية الانكليزية فأقرها بأكثرية ضئيلة ، ودخل على القانون الأساسى تعديلان : الأول بعد وضعه موضع العمل بسنة ، والثانى سنة ١٩٤٣

ولم تزل المدة التى تضمنتها المعاهدة المذكورة بين المد والجزر ، والعراقيون يلحفون فى طلب الاستقلال التام الذى لا تشوبه

شائبة حتى تم عقد المعاهدة العراقية الانكليزية فى ٣٠ حزيران سنة ١٩٣٠ التى عليها العمل الآن ، والتى خرج العراق بمقتضاها من ربقة الانتداب الذى لم يعترف به فى وقت ما ، إلى حظيرة الاستقلال ، و بمقتضاها دخل العراق عصبة الأمم بعد أن اعترف باستقلاله ست وخمسون دولة .

ومن أهم الأحداث التى اهتزت لها عاصمة الهاشميين وفاة المغفور له فيصل الأول فى ٨ أيلول سنة ١٩٣٣ فبويع ولى عهده نجله الملك غازى الأول ، وكانت وفاة جلالة الملك فيصل الأول فى برن من بلاد سويسرة ، فنقل جثمانه إلى بغداد بطيارة خاصة ودفن فى مقبرة آل البيت التى كانت قد أعدت من قبل . وأهم حادث شهدته المملكة بعد ذلك وفاة الملك الشاب المغفور له غازى الأول بحادث اصطدام سيارته الخاصة سنة ١٩٣٩ ، فبويع بالملك ولى عهده ابنه الفرد فيصل الثانى . ولما كان دون السن القانونية فقد عهد مجلس الأمة بالوصاية عليه إلى سمو الأمير عبد الإله بن الملك على بن الملك حسين ، ولم يزل قائماً بأعباء مهمته هذه على خير ما يرام متخذاً من سياسة المغفور له عمه فيصل الأول عليه الرحمة مناراً يأتم به .

الخطط والآثار

لم تكد الدولة العباسية تتخذ بغداد عاصمة لها حتى أقبل الناس إليها من كل صوب وحدب ، وتكاثف فيها رجال المال والأعمال فأكثروا من إنشاء الدور والقصور ، وكانت الدولة تشجع على ذلك وتمد أهل النشاط من التجار والصناع برعايتها وفضل عنايتها. وفى الحق أنه لم تصل مدينة من مدن الإسلام فى العصور الخالية إلى ما وصلت إليه بغداد من سعة العمران ونبالة الآثار. كما أنه لم تصب مدينة منها بما أصيبت به بغداد من الكوارث والجوائح. فكما تضافرت الأيدى على عمرانها ورفعة شأنها تضافرت الخطوب والكوارث على تمزيق أديمها ومحو قديمها . فقد تعاونت أيدى الغرباء من الأجناد والفاتحين من المغول ومن لف لفهم ، ودجلة والفرات والأمراض الوافدة ، على تدميرها وطمس معالمها ، حتى لم يبق من رسومها اليوم أثر يمكن أن يهتدى به الباحث المنقب إلى تعيين المواضع التى كانت تقوم عليها تلك القصور الشاهقة والمبانى الشامخة والمساجد الجامعة والمدارس العظيمة التى كانت تملأ سمع الزمان و بصره. أللهم إلا بعض طلول

لاتزال ماثلة، مثل المدرسة المستنصرية و باب الطلسم الذى ينسب بناؤه إلى الخليفة الناصر ، و بعض المآذن و بقايا خرائب قصر على دجلة من الجانب الشرقى أطلقت عليه دائرة الآثار اسم القصر العباسى ...

أين موضع المدينة المدورة ؟ . أين مواضع قصور الخلفاء ؟ . أين موضع البيمارستان العضدى ؟. أين مجارى الأنهار التى كانت تجرى خلال الجانبين ؟ . أين موضع المدرسة النظامية ؟ . أين مواضع المحلات الكبيرة فى الجانبين ؟ . أين مدفن الخلفاء العباسيين ؟ ...

لا جواب على هذه الأسئلة إلا من قبيل الحدس والتخمين . أما الجواب المبنى على استنطاق الآثار واستجلاء المعالم فلا سبيل إليه ، ولذلك فإن الباحثين فى خطط بغداد اليوم لا يخرجون فى تدقيقاتهم واستنتاجاتهم عن حدود الظنون . ونحن نرجو من دائرة الآثار أن تقوم بالحفر والتنقيب فى أطراف المدينة اليوم لعلها تهتدى إلى ما ينير السبيل أمام المحققين من المؤرخين .

وقد رأينا تسهيلاً على القارىء أن نوزع هذا الباب إلى فصول ينفرد كل فصل منها بنوع من الآثار .

١ — أشهر المحلات فى القديم

محلات الجانب الغربى :

فى الجانب الغربى محلات كثيرة من أشهرها محلة باب التبن وعندها يقع مشهد الإمام موسى بن جعفر ، ويقرب منها محلة كان يطلق عليها اسم قطيعة أم جعفر وإلى جنوبيها الشرقى تقع محلة الحربية ، سميت بذلك لأنها كانت معسكراً لقائد من قواد المنصور يقال له حرب ، وكان يضاف إليه أحد أبواب الجانب الغربى من المدينة المدورة فيقال له « باب حرب » ، وإلى جنوبى الحربية تقع محلة الشارع ، وإلى الغرب منها تقع محلة العتابية ، وإلى الجنوب من العتابية تقع محلة البيمارستان — وهى على دجلة — وإلى الجنوب الغربى منها تقع محلة الكرخ وهى أعظم محلات الجانب الغربى وأشهرها ، وتشتمل على كثير من القطائع والأرباض ، وإلى الجنوب من محلة البيمارستان محلة باب البصرة وإلى الغرب منها محلة باب المحول ، ويتاخم محلة باب البصرة محلة الشرقية بين باب الحرانى ودجلة . ويتاخم الشرقية أو يبعد عنها قليلا ربض القرية ، وأقصى محلات الجانب الغربى من جهة

الجنوب محلة قصر عيسى وتقع على الضفة اليمنى من نهر عيسى عند مصبه فى دجلة . وكان الكثير من المحلات الكبيرة فى هذا الجانب محاطاً بأسوار خاصة حتى تظهر كل محلة منها بمظهر بلد قائم بنفسه .

محلات الجانب الشرقى :

من أشهر محلات الجانب الشرقى المحلة التى فيها مشهد الإمام أبى حنيفة و إلى جوارها من جهة الجنوب محلة الرصافة و بينهما مقابر الخلفاء العباسيين و يلى الرصافة إلى الجنوب والشرق محلة الشماسية فمحلة المخرِّم .

وفى الجانبين كثير من الأرباض والقطائع اشتهرت بأسماء أصحابها وهى مبثوثة فى كتب الجغرافية والتاريخ وليس فى الإمكان الاهتداء إلى مواضعها اليوم بالضبط المبنى على اليقين .

محلات بغداد اليوم :

أما اليوم فتبلغ محلات بغداد حسب التقسيم الإدارى الأخير زهاء ١٢٠ محلة ، عدا محلات بلدة الكاظمية . منها فى الجانب الغربى ٢٥ محلة . والمحلات التى استحدثت بعد إنشاء الحكم الوطنى

كثيرة : منها ثلاث محلات فى الجانب الغربى وعشر محلات فى الجهة الجنوبية من الجانب الشرقى وخمس فى الجهة الشمالية منه .

أبواب بغداد اليوم :

فى الجانب الشرقى : باب المعظم – يقع فى الجهة الشمالية من هذا الجانب على الطريق الممتد بين بغداد وبلدة الأعظمية ، وكان يسمى فى القديم باب السلطان ، وقد امحى رسم هذا الباب اليوم ولم يبق إلا اسمه .

الباب الوسطانى : ويقع إلى الشرق من هذا الجانب ، وكان فى القديم يسمى باب الظفرية — باب الطلسم — وكان يسمى فى القديم باب الحلبة ، وهو الباب الوحيد الذى عليه كتابة عباسية بقيت إلى عهد قريب .

الباب الشرقى : ويقع فى أقصى الجنوب ، وكان يسمى فى القديم باب البصلية ، ويطلق عليه بعض القدماء من المؤرخين اسم باب كلواذى ، لأن السالك إلى قرية كلواذى يمر بهذا الباب . وبعد أن اندثر أكثر سور الجانب الشرقى على عهد مدحة باشا لم يبق لهذه الأبواب كبير شأن .

فى الجانب الغربى : أما الجانب الغربى فلا يظهر فيه أثر لسور قديم اليوم ، ولكن أهل بغداد يلهجون بأسماء أبواب ليس لها من أثر محسوس أحدها فى الجنوب ويعرف باسم باب السيف ويفضى إلى أنبار واسع على سيف دجلة يسمى السِّيف، وهو فى محلة تعرف بمحلة باب السيف . والباب الآخر من الجهة الغربية من هذا الجانب ويعرف باسم باب الشيخ معروف ، وهو يؤدى إلى مشهد الشيخ معروف الكرخى ، والباب الثالث فى الجهة الشمالية ويعرف باسم باب الكاظم يمر فيه الذاهب إلى بلدة الكاظمية ، ومن المحتمل أن تكون لهذه الأسماء معان فى السور القديم لهذا الجانب . أما اليوم فليس هناك أية أمارة تدل على مواضع هذه الأبواب .

٢ — المساجد الجامعة

فى مقدمة المبانى العامة التى عُنى بها القوم الإكثار من إقامة المعابد، وأول مسجد جامع أقيم فى مدينة المنصور هو المسجد الذى أنشأه المنصور لنفسه ملاصقاً لقصره الكبير المعروف بقصر الذهب

جرياً على عادة أهل ذلك الزمان فى جعل المساجد ملاصقة لدور الإمارة ، وكانت مساحته مائتى ذراع فى مائتين على نمط مساجد الكوفة والبصرة وواسط . وكان فى أول الأمر مبنياً باللبن والطين إلى أن كان عهد الرشيد فأمر بنقضه و إعادة بنائه بالآجر والجص مع زيادة فى مساحته ، وقد تم ذلك سنة ١٩٢ ثم ألحق به ديوان المنصور سنة ٢٦١ ، ثم أضاف إليه المعتضد بالله قصر المنصور ، و بقى هذا المسجد عامراً إلى العصر الثامن الهجرى. فقد ذكر ابن بطوطة فى سنة ٧٢٧ أن هذا المسجد لا يزال قائماً تقام فيه الجمع ، ثم لم يرد له ذكر بعد ذلك ولا أثر له اليوم مما يظهر أنه اندثر على عهد الحكومات التى توالت على بغداد بعد حكومة المغول .

مسجد الرصافة : ولما أنشأ المنصور قصر الرُّصافة فى الجانب الشرقى ألحق به مسجداً جامعاً ، وفى خلافة المهدى صارت تقام فيه الجمع ، ولم تكن تقام الجمع فى بغداد يومذاك إلا فى مسجد المنصور ومسجد الرصافة إلى وقت خلافة المعتضد .

مسجد دار الخلافة : عند ما انتقل الخليفة المعتضد إلى القصر الحسنى (الذى عرف بقصر الخلافة على ما سيأتى) أذن للناس بإقامة الجمعة داخل هذا القصر ، فكان يؤذن للمصلين فى

الدخول وقت الصلاة ويخرجون عند انقضائها ، فلما استخلف المكتفى سنة ٢٨٩ ترك القصر وأمر أن يقام فيه مسجد جامع يصلى فيه الناس . وكان الناس يبكرون إلى المسجد الجامع فى الدار أيام الجمع فلا يمنعون من دخوله ويقيمون فيه الى آخر النهار، واستقرت صلاة الجمعة ببغداد فى المساجد الثلاثة إلى وقت خلافة المتقى .

مسجد براثا : كان في براثا مسجد تقام فيه الصلاة ، ولما كانت خلافة المقتدر أمر بهدمه عند ما بلغه أن ناساً يجتمعون فيه للخروج عن الطاعة ، وبقى خراباً إلى سنة ٣٢٨ فأمر الأمير بإعادة بنائه وتوسعته وإحكامه ، ووسع فيه ببعض مما ابتيع له من أملاك الناس وكتب فى صدره اسم الراضى بالله ، وكان الناس ينتابونه للصلاة فيه والتبرك به ، لأنهم يرون أنه أقيم على موضع صلى فيه الإمام علىّ رضى الله عنه عند منصرفه من حرب الخوارج ، ثم أمر المتقى بالله بنصب منبر فيه وأول جمعة أقيمت فيه كانت فى جمادى الأولى سنة ٣٢٩ ثم توالت صلاة الجمعة فيه وصار أحد مساجد الحضرة .

مسجد قطيعة أم جعفر : هو مسجد أقيم بناء على رؤيا رأتها

امرأة وثق الناس بصدقها يومئذ وشك بعض الفقهاء فى صحة إقامة الجمعة فيه لقربه من المسجد الجامع فى دار الخلافة بناء على القول بأن الجمعة لا تقام بأكثر من موضع واحد فى البلد الواحد ، ولكن الخليفة الطائع أذن أن تقام به الجمعة بناء على كونه منفصلا عن المدينة بخندق فكأنه واقع فى بلد آخر .

مسجد الحربية : هو مسجد أنشأه أبو بكر بن عبد العزيز الهاشمى فى أيام المطيع لله ليكون جامعاً يخطب فيه ، فمنع المطيع من ذلك للسبب الذى ذكر فى مسجد قطيعة أم جعفر ، ومكث المسجد على تلك الحال حتى استخلف القادر بالله فاستفتى الفقهاء فى أمره فأفتوا بجواز إقامة الجمعة فيه، وذلك فى شهر ربيع الآخر سنة ٣٨٣ . قال الخطيب البغدادى: « أدركت صلاة الجمعة وهى تقام ببغداد فى مسجد المدينة ومسجد الرصافة ، ومسجد دار الخلافة ومسجد براثا ومسجد قطيعة أم جعفر ومسجد الحربية ، ولم تزل على هذا إلى أن خرجت من بغداد سنة ٤٥١ ثم تعطلت فى مسجد براثا فلم تكن تصلى فيه . » اهـ .

أما المساجد غير الجامعة فلا تكاد تحصى عداً ، وقد بالغ الأقدمون فى التقدير فذكروا أنها تبلغ عدة مئات من الألوف مما

لا يكاد يصدق . وقال ابن بطوطة : « و ببغداد من المساجد التى يخطب فيها وتقام فيها الجمعة أحد عشر مسجداً منها بالجانب الغربى ثمانية و بالجانب الشرقى ثلاثة . والمساجد سواها كثيرة جداً . »
ولم يبق من المساجد التى ذكرها الخطيب اليوم عين ولا أثر ، اللهم إلا مسجد دار الخلافة ، فالظن يغلب على أنه كان فى الموضع الذى تقوم فيه منارة سوق الغزل ، ولا يزال على مقربة منها مسجد جامع يقال له جامع الخلفاء .

واليوم لا يكاد المنقب المدقق يهتدى إلى مواضع المحلات القديمة من بغداد لذهاب أطلالها ورسومها ، وانطماس آثارها ومعالمها ، ولم يبق لذوى البصائر بصيص ينير لهم الطريق للاهتداء إلى مواضع تلك المساجد العظيمة التى عمرت بالمصلين حيناً من الدهر ، إلا مضاجع الأقدمين التى أسموها بالأضرحة ومن أشهرها اليوم فى الجانب الشرقى :

جامع أبى حنيفة المعروف اليوم بجامع الإمام الأعظم . وبلدة الأعظمية و إن كانت منفصلة عن بغداد حيناً من الدهر إلا أنها أصبحت اليوم متصلة بها معدودة جزءاً منها كما كانت فى صدر الدولة العباسية . و إلى يسار المحراب من هذا المسجد قبر الإمام

أبى حنيفة المتوفى سنة ١٥٠ وقد ذكر المقدسى أنه زار هذا القبر سنة ٣٧٥، وذكر أنه كان فيه صُفّة من إنشاء أحد العلماء المعاصرين له.

وفى سنة ٤٥٩ أقام أبو سعد الخوارزمى أحد عمال ملكشاه السلجوقى على هذا القبر قبة شامخة و بنى إلى جوارها مدرسة للحنفية، ثم اقتطع من تلك المدرسة مسجد جامع وفى سنة ٤٧٩ زار هذا القبر السلطان ملكشاه السلجوقى ووزيره نظام الملك كما مر فى الباب السابق. وزاره ابن جبير سنة ٥٨٠ فذكر « أنه مشهد حفيل البنيان له قبة بيضاء سامية فى الهواء ». وقال ابن بطوطة: « و بقرب الرصافة قبر الإمام أبى حنيفة (رض) وعليه قبة عظيمة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر . . . »

ولما استولى الصفويون على بغداد امتدت يد التخريب إلى هذا المسجد، ولكن خلفاء بنى عثمان أعادوه إلى أحسن مما كان، فذكر المؤرخون أن السلطان مراد الرابع صلى فى هذا المسجد عدة أوقات للتبرك، وشارك القراء بقراءة ما تيسر من القرآن الكريم. ولا يزال هذا المسجد قائماً إلى عهدنا هذا، وهو من أرسخ الآثار التاريخية التى يستعان بها على فهم الوضع الجغرافى

للجانب الشرقى من بغداد ، فقد ذهبت آثار محلة الرصافة والشماسية ومحلة المخرم ولم يبق من أثر يستدل به على مواضعها إلاّ هذا المسجد .

جامع الخلفاء : وهو جامع صغير أنشأه والى بغداد سليمان باشا سنة ١١٩٣ على زاوية من أنقاض جامع عظيم طمست آثاره ولم يبق منه إلا منارته التاريخية العجيبة ، ويغلب على الظن أن هذه المنارة كانت قائمة فى مسجد دار الخلافة . وأما القول بأن هذه المنارة من آثار مسجد الرصافة فانه وهم لايخفى ، لأن رصافة المهدى وجامعها على مقربة من قبر الإمام أبى حنيفة ، ولايعقل أن تمتد إلى الجهة التى فيها منارة سوق الغزل .

مسجد الشيخ عبد القادر الجيلى : ذكروا أن الشيخ عبدالقادر الجيلى (رض) قد خلف شيخه أبا سعيد المخرمى فى مدرسته التى كانت تقع على باب الأزج فأضاف إليها وعمرها فأعانه الأغنياء بمالهم والفقراء بعملهم . ولما توفى سنة ٥٦١ دفن فى رواقها ، و بعد وفاته بزمن اتخذت هذه المدرسة مسجداً ، ولا يزال هذا المسجد قائماً ، وهو من أوسع مساجد بغداد اليوم ، وعلى مصلاه قبة تعد أعظم قبة فى مساجد بغداد ، والمحلة التى تحيط بهذا المسجد تعرف

اليوم بمحلة « باب الشيخ » والمراد بالشيخ الشيخ عبد القادر

جامع الشيخ عمر السهروردى : وهو من أقدم جوامع بغداد ، و إلى جواره قبة مخروطيّة الشكل تظلل قبر الشيخ السهروردى المتوفى سنة ٦٣٢ والشيخ عمر هذا من أكابر فقهاء الشافعية ، ومن مشاهير الصوفية وهو صاحب كتاب « عوارف المعارف » فى التصوف ، وقبته هذه تعتبر من أقدم الآثار التاريخية فى بغداد ، ولها شبه تام بالقبة المعروفة اليوم بقبة الست زبيدة[١] وأهل بغداد اليوم يزورون هذا القبر ويتبركون به .

جامع مرجان : هو فى الأصل مدرسة شادها الخواجة مرجان مملوك السلطان أويس الجلائرى سنة ٧٥٨ وجعل ضمنها مسجداً تقام فيه الجمع ووقف عليها الأوقاف الطائلة ، وقد نقش بالآجر على جدران هذه المدرسة جميع ما وقف عليها مع شروط الوقف ، ولا تزال هذه المبرة قائمة إلى اليوم على الجانب الشرقى من شارع

---

(١) ذكر المحققون أن قبر السيدة زبيدة يقع إلى جوار مشهد الامام الكاظم ، أما القبة المجاورة لقبر الشيخ معروف الكرخى والمشهورة اليوم عند البغداديين باسم قبة الست زبيدة فيرى بعض المحققين أنها تقوم على قبر زمرد خاتون أم الناصر لدين الله العباسى . ويرى آخرون غير ذلك ، وكلهم مجمع على أن زبيدة هذه ليست بزبيدة بنت جعفر زوج الرشيد .

الرشيد ، وفيها من ضروب الريازة وبديع الصناعة المعمارية ماجعلها محج رواد الآثار العتيقة وطلاب الفنون الجميلة ، وفى هذه المدرسة دفن مرجان سنة ٧٧٤ ولا يزال قبره ظاهراً إلى الآن .

هذه أظهر المساجد الجامعة فى الجانب الشرقى . أما فى الجانب الغربى فأشهر المساجد القديمة مسجد الكاظمين ، وهو المسجد المشتمل على ضريح الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق وحفيده محمد الجواد عليهم الرضوان ، وهو مسجد واسع الأكناف واقع فى وسط بلدة الكاظمين التى تقابل بلدة الأعظمية ، ويربط بينهما جسر عائم على دجلة . وبينها وبين الجانب الغربى من بغداد اليوم نحو ثلاثة أميال . ولا يعلم بالضبط التاريخ الذى أقيم فيه هذا المسجد غير أن المؤرخين يذكرون أن الخليفة الطائع (٣٦٣ — ٣٨١) صلى الجمعة إماماً فى هذا المسجد أكثر من مرة . وقد ذكر ابن جبير هذا المسجد فى جملة المشاهد التى زارها. وقد ذكر المؤرخون أن النار قد التهمت هذا المسجد سنة ٦٢٢ فى خلافة الظاهر بالله فأسرع الخليفة إلى إعادة بنائه ولكن المنية عاجلته فأتمه ابنه المستنصر . وعند حصار المغول لبغداد سنة ٦٥٦ أصيب هذا المسجد بتدمير كبير ولكن هولاكو أمر بعد ذلك

بإصلاح ما دُمِّر ، وقد أصيب بالغرق عدة مرات ولكنه استمر ثابتاً . ويقوم اليوم على هذين الضريحين مسجد واسع الأكناف رفعت قبابه فى السماء وزينت بضروب من الزينة وأحيطت بأربع مآذن شوامخ ، وقد غُشّى كل ذلك بصفائح من النحاس مطلية بالذهب تظهر للناظر على مسافة أميال من بغداد يكاد لمعانها يأخذ بالأبصار ، وزينت سائر جدران المسجد بالقاشانى الجميل . أما داخل المسجد فيقصر الوصف عما فيه من ضروب الزينة وصنوف الفن .

مسجد الشيخ معروف :

وهـذا أيضاً من المساجد القـديمة فى الجانب الغربى وفيه قبر معروف الكرخى ، وهو فى سرداب عميق ، وكان الشيخ معروف فى الأصل مسيحياً أسلم على يد علىّ بن موسى الرضى ، فعدّ من مواليه ، وله عند أهل التصوف مقام رفيع ، وعند أهل العلم حرمة كبيرة وتوفى سنة ٢٠٠ . ويظهر أن مسجده هذا قديم العهد ، فقد ذكره أكثر المؤرخين ، والقبة القائمة عليه اليوم مزينة بضروب القاشانى الجميل ، ويقصده الناس للزيارة فى أيام معلومة .

جامع القمرية :

وهو من مساجد الجانب الغربي القديمة الذي تكرر ذكره في بعض التواريخ ، ولم يعرف بانيه بالضبط ، وقد نسب إليه جماعة من أهل العلم الذين درسوا فيه ، ويغلب على الظن أن هذا المسجد من المساجد التي بنيت في أواخر العهد العباسي ، وهو من أصح مساجد بغداد قبلة ، ومن المساجد القليلة التي ليس فيها قبر لأحد .

جامع الشيخ صندل :

ذكر بعض المؤرخين أن صندلاً هذا كان أستاذ الدار في خلافة المقتفي لأمر الله ، وكان يلقب بعماد الدين وأنه توفي سنة ٥٩٣ ، ودفن في تربته الخاصة التي أعدها لنفسه من قبل في الجانب الغربي . والجامع المعروف اليوم بجامع الشيخ صندل قائم على هذه التربة ، وقد جددت عمارته سنة ١٣١١ ثم في سنة ١٣٦٠ .

هذه المساجد من أشهر مساجد بغداد اليوم ، وفي بغداد اليوم نحو من ستين مسجداً جامعاً بما فيها المساجد الجامعة في الأعظمية

والكاظمية استقصاها المحقق السيد محمود شكرى الألوسى عليه الرحمة فى كتابه الذى أسماه « تأريخ مساجد بغداد وآثارها » وهو مطبوع[1] متداول، فمن شاء التوسع فليرجع إليه[2] ، ولم يخرج عنه إلا مسجد سمو الأمير عبد الإله الذى أمر سموه ببنائه فى محلة العيواضية فى الجانب الشرقى من بغداد . ومسجد المرحوم فتاح باشا الذى أقيم فى الجانب الغربى على مقربة من رأس الجسر الذى يصل بين بلدتى الأعظمية والكاظمية .

٣ — المدارس

كانت المساجد والمساجد الجامعة على الأخص مباءة لأشياخ العلم ، ومراداً لتلاميذهم ، فكان الشيخ يجلس إلى سارية من سوارى المسجد ويُحلّق أمامه الطلبة فيقول وهم يسمعون أو يقرأ أحدهم وهو يسمع ويشرح ويوضح ، فكان كل مسجد بمثابة

---

(١) طبع فى بغداد سنة ١٣٤٦

(٢) وللشيخ عيسى البندنيجي (المتوفى سنة ١٢٨٣) كتاب فى مزارات بغداد ترجمه عن التركية

جامعة تتألف من عدة كليات ، فان المسجد الجامع الواحد قد يضم من حلقات العلم العدد العديد . فهنا حلقات لتدريس علم الكلام وهناك لتعليم الفقه وأخرى لرواة الحديث ، وهكذا تجد المسجد الواحد يشتمل على حلقات كثيرة لعلوم كثيرة ما بين شرعية ولسانية وكونية ، وفى جنب هذه المؤسسات مدارس لا تكاد تحصى عداً ويقصر التعليم فيها على مبادىء القراءة والكتابة وبسائط علم اللغة والحساب ، ويعنى فيها عناية خاصة بتدريس القرآن الكريم، يطلق عليها اسم الكتاتيب الواحد منها كُتَّاب، وهى بمثابة المدارس الأولية اليوم ، وهذه الكتاتيب قد تكون فى المساجد ، وقد تكون فى البيوت الخاصة ، والقائمون على التعليم فيها يقال لهم المعلمون ، ومن هنا يفهم أن التعليم ينقسم فى تلك العصور إلى قسمين أولىّ وعال . أما التعليم الذى نسميه اليوم بالتعليم الثانوى فإنه يندمج فى التعليم العالى اندماجاً تاماً

وهنالك مدارس كثيرة لتأديب الجوارى وتثقيفهن . والجارية التى تتأدب وتتهذب تغلو قيمتها وتعلو مكانتها .

وأول من نعلمه أمر ببناء مدرسة مستقلة عن الجوامع فى بغداد أحمد بن طلحة الموفق الملقب بالمعتضد (المتوفى سنة ٢٨٩)

فإنه عند ما وضع الخطة لإنشاء قصره فى الشماسية استزاد المهندسين فى الذرع فسئل عن ذلك فذكر « أنه يريد أن يبنى فيه دوراً ومساكن ومقاصير يرتب فى كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعمليـة ، ويجرى عليهم الأرزاق السنية ليقصد كل من اختار علمـاً أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه »[١]

النظامية : ثم بنى الحسن بن على الملقب بنظام الملك وزير ملكشاه السلجوقى مدرسته المعروفة بالنظامية ، وأتم بناءها سنة ٤٥٩ وكانت فى الجانب الشرقى . ذكر المؤرخون أنها افتتحت فى يوم السبت عاشر ذى الحجة من السنة المذكورة وكان يوم افتتاحها يوماً مشهوداً ، حضره رجال الدولة والعلماء والأعيان وغيرهم . . . . . ورتبت فيها جرايات ومعاليم للمدرسين والطلبة .

وقد تخرج فيها من أساطين العلم وأساتيذ الفضل جماعة كبيرة ، وكفاها فخراً أن يكون من أساتذتها أبو إسحق الشيرازى كبير فقهاء الشافعية والإمام أبو حامد الغزالى وأبو بكر محمد بن أحمد الشاشى كبير فقهاء الحنفية وغيرهم وغيرهم . .

(١) المقريزى ج ٤ ص ١٩٢

قال المحقق السيد محمود شكرى الألوسى فى كتابه تأريخ مساجد بغداد: «لم ندرك نحن ولا آباؤنا أثراً من آثارها.. ولم يبق منها سوى بقايا مئذنة بقيت تشكو بلسان حالها . . » وقد نظم شاعر العصر الأستاذ الرصافى قصيدة على لسان هذه المدرسة جاء فى مطلعها[1]

قوض الدهر بالخراب عمادى ورمتنى يداه بالأنكاد

ومنها :

طالما رفرفت من العلم رايا ت فخار منى على بغداد
أهلَ بغداد ما لأعينكم تغ مض عنى كأنكم فى رقاد
أهلَ بغداد هل ترق قلوب منكم راعها انقضاض عمادى
رق حتى قلب الجماد لفقدى فلتكونَنْ قلوبكم من جماد

البيمارستان : فى أواخر العصر الثالث وأوائل الرابع أنشىء معهد للطب أطلق عليه اسم البيمارستان ، وكان الطبيب الكبير أبو بكر الرازى المتوفى سنة ٣٢٠ يدرس فيه الطب . وقد أنشأ عضد الدولة بن بويه بيمارستاناً آخر على أنقاض قصر الخلد أطلق الناس عليه اسم البيمارستان العضدى ، واطلقوا على الذى قبله اسم البيمارستان العتيق ، والبيمارستان العتيق يعتبر أول مدرسة طبية

(١) ديوان الرصافى ص ٣٥٧

نظرية وعملية أنشئت فى بغداد ، وكلا البيمارستانين فى الجانب الغربى . قال ابن جبير : «وبين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان وهى مدينة صغيرة فيها المارستان الشهير ببغداد وهو على دجلة، ويتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس ويطالعون أحوال المرضى به ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه ، وبين أيديهم قومة يتولون طبخ الأدوية والأغذية ، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية . . » اهـ . والظاهر أن هذا البيمارستان عاش إلى ما بعد سقوط بغداد بيد المغول ، فقد ذكره ابن بطوطة فى سنة ٧٢٧ قائلا : « وهو قصر كبير خربٌ بقيت منه الآثار » . ولم يبق اليوم لهذا البناء أثر يهتدى به إلى مكانه .

المستنصرية : هى المدرسة العباسية الوحيدة التى بقيت إلى اليوم ماثلة للعيان ، محتفظة بالكثير من الكتابات التى سطرها بناتها على جدرانها ، وقد أطنب المؤرخون فى وصفها ، وكتب المعاصرون الرسائل الخاصة بها ، وحبروا المقالات الطويلة فى مبتدإ خبرها ومنتهى أمرها ، وعلى الجملة فانها آخر مدرسة بناها خلائف بنى العباس ، وقد بقيت تعجمها الكوارث وترجمها الحوادث ،

وتمر بها القرون مرور الريح فوق الجبل الأشم . تم بناؤها وفتحت للتدريس أبوابها سنة ٦٣١ ، وكان يوم افتتاحها يوماً مشهوداً حضره الخليفة والوزير وكبار رجال الدولة والعلماء والأدباء والأعيان وسائر الوجوه فى بغداد ، وأنشد الشعراء قصائد التهنئة والثناء فى ذلك اليوم ، وحمل إليها من قصور الخلافة فى ذلك اليوم مائة وستون حملا من الـكتب، سوى مانقل اليها بعد ذلك وما أحضره أرباب الدولة والمتمولون من كتبهم تقرباً إلى قلب الخليفة، ورتب فيها مدرسون على المذاهب الأربعة لـكل مدرس أربعة معيدون، ورُتب لخزانة كتبها خازن ومساعدون ، وأجرى على كل طالب فى المدرسة فى كل يوم أربعة أرطال من الخبز وكمية معينة من الطبيخ ، ورتب لـكل طالب أيضاً ديناران فى الشهر ، إضافة إلى مارتب لهم من الحلوى والفاكهة والصابون والزيت .

وعين فيها مدرسون لإقراء القرآن وللحديث وللنحو وللطب ، وأجرى على المدرسين والمعيدين وسائر الموظفين ما يكفيهم من الأرزاق اليومية والشهرية . وقد بلغ ريع ما وقف عليها من العقارات والمسقفات أكثر من سبعين ألف مثقال سنوياً . وقد

زار ابن بطوطة هذه المدرسة وحضر التدريس فيها.

ولما دخل المغول بغداد لم تسلم هذه المدرسة من يد الاعتداء، فقد عصفت بكتبها وأثاثها عاصفة النهب والتبديد، ثم أعيدت إلى سابق عهدها وأعيدت إليها أوقافها، ولم تزل على ذلك إلى العهد العثمانى، وهناك جردها المتغلبون من أوقافها، فبقيت تعالج السكرات إلى أن عهد بولاية بغداد إلى سليمان باشا المتوفى سنة ١٢١٧ فجعل المستنصرية مستغلا لمدرسته «السليمانية»، ومنذ ذلك الحين صارت المستنصرية خانا تخزن فيه السلع. ثم إن المجلس العسكرى استأجرها من دائرة الوقف لعدة سنوات بمبلغ زهيد، ولم تلبث الدوائر العسكرية أن ادعت ملكيتها وباعتها لدائرة الرسومات سنة ١٣١١، وهنا وصلت بها الحال إلى أدنى دركات الهوان، فرثاها الشعراء المعاصرون رثاء أبكى العيون، فمن ذلك قول جميل صدقى الزهاوى عليه الرحمة:

وقفت على المستنصرية باكياً ... ربوعاً بها للعلم أمست خواليا
وقفت بها أبكى قديم حياتها ... وأبكى بها الحسنى وأبكى المعاليا
وقفت بها أبكى بشعرى بُناتها ... وأنعى سجاياهم وأنعى المساعيا
بكيت بها المدفون فى حجراتها ... من العلم حتى بلّ دمعى ردائيا

وقد جد بعض الأحرار الغُيُر فأثبتوا أمام المحاكم أنها المدرسة المستنصرية ، فأعادوها إلى دائرة الأوقاف على الرغم من أنوف الجاهلين ، وفى النية رمّها و إصلاحها وجعلها معهداً علمياً يلتئم مع حاجة العصر الحاضر .

و يظهر أن البغداديين قد جدوا بعد إنشاء المدرسة النظامية بإنشاء المدارس على نمطها حتى صارت تعد المدارس الكبيرة فى بغداد بالعشرات . قال ابن جبير : « والمدارس بها نحو الثلاثين، وهى كلها بالشرقية ، وما منها مدرسة إلا وهى يقصر القصر البديع عنها ، وأعظمها وأشهرها النظامية . . » .

مدرسة مرجان :

ذكرنا سابقاً أن مرجان كان مملوكا رومياً للسلطان أويس الجلائرى ، وأنه أنشأ هذه المدرسة ورصد لها الأوقاف الكثيرة وألحق بها مسجداً أصبح اليوم مسجداً جامعاً ، وقد غلب اسم المسجد الجامع على هذه المدرسة ، فالناس اليوم يعرفون « جامع مرجان » أكثر مما يعرفون « مدرسة مرجان » مع أن المدرسة كانت هى الأصل

والمدارس القديمة اليوم فى بغداد كلها متصلة بالمساجد ، وهى

كثيرة تدرس فيها العلوم الشرعيـة واللسانية و بعض العلوم الـكونية ، وقد يكون للمدرسة الواحدة منها أكثر من مدرس واحد . وكل المدارس القديمة ببغداد دينية ومناهجها تابعة للتقاليد القديمة : عدا دار العلوم الدينية والعربية فإنها مؤسسة على النمط الحديث ، وتتألف من قسم ثانوى وقسم عال ، وتدرس فيها مع العلوم الدينية والعلوم اللسانية علوم أخرى لا يمـكن أن يستغنى عنها علماء الدين فى هذا العصر ، مثل علم الاجتماع وعلم النفس وأصول التعليم وغيرها ، وأكثر طلابها يعيشون على نفقة مديرية الأوقاف العامة . وهذه المدرسة واقعة إلى جوار مشهد الإمام أبى حنيفة (رضى الله عنه)

أما المدارس الحديثة فقد بدىء بإنشائها فى بغداد على عهد الوالى مدحة باشا ، ولـكنها كانت قليلة، ولغة التدريس فيها هى اللغة التركية . ولما أنشئت الحـكومة الوطنية وجهت جل عنايتها إلى الإكثار من هذه المدارس على اختلاف مراحلها من ابتدائية وثانوية وعالية . ففى سنة ١٩٤٢ — ٤٣ الدراسية بلغت مدارس الأحداث فى بغداد ٢٥ مدرسة يقوم بالتعليم فيها ١٦٦ معلمة . وهذه المدارس تجمع بين جدرانها البنات والبنين ،

وبلغت المدارس الابتدائيــة فى السنة نفسها عدا مدارس الأحداث ٩٥ مدرسة منها ٣١ مدرسة للإناث يقوم بالتعليم فيها ٧٠٧ من المعلمين والمعلمات . وبلغت المدارس المتوسطة والإعدادية عشرين مدرسة، ثمان منها للإناث، يقوم بالتدريس فيها ٢٠٠ مدرس ومدرسة . وفى العاصمة سبع من دور المعلمين والمعلمات ، منها ثلاث للمعلمات وواحدة عالية يتألف طلابها من الجنسين ، وهناك مدرسة للصنائع وأخرى للزراعة وأخرى للفنون البيتية . وفى بغداد من المدارس العالية — عدا دار المعلمين العالية — كلية للحقوق وكلية للطب وكلية للصيدلة وكلية للهندسة وكلية لتخريج الضباط تابعة للجيش . وقد وضع تصميم لإنشاء كلية عالية لتخريج ضباط الشرطة .

هذه هى المدارس التابعة لوزارة المعارف مباشرة . أما المدارس الأهلية الابتدائية فتبلغ ٤٢ مدرسة منها ١٩ للإناث يقوم على التعليم فيهــا ٣٤٤ معلماً ومعلمة ، وبلغت المدارس المتوسطة والإعدادية الأهلية ١٦ مدرسة منها ٣ للإناث يقوم على التدريس فيها ١٠٧ من المدرسين والمدرسات ، وفى بغداد مدرستان

ابتدائيتان أجنبيتان وسبع متوسطات وإعداديات يقوم على التدريس فيها ٥٧ مدرساً ومدرسة .

ومجموع طلاب المدارس فى العاصمة يبلغ زهاء ٣٠ ألف طالب وطالبة ، ومجموع طلاب المدارس الرسميـة فى العراق لسنة ٩٤٢ — ٤٣ زهاء ١٠٥ آلاف ، ومجموع المدارس الرسمية ٨٦٣ مدرسة يقوم بالتدريس فيها ٤٦٤٧ مدرساً

وبلغت حصة المعارف فى ميزانية الدولة لسنة ٩٤٣ — ٤٤ ١١٠و١٢٠٤و٢ من الدنانير وهى أكثر من عُشر ميزانية الدولة .

٤ — المتاحف

لم يكن للآثار العتيقة فى بغداد دور خاصة إلا بعد انفصال العراق عن الدولة العثمانية ، وبغداد اليوم تحتوى على خمس دور لهذه الآثار .

١ — المتحف المركزى : ويشتمل على آثار الأقدمين من سومريين وبابليين وآشوريين وغيرهم ممن قطن العراق قبل الإسلام .

٢ — دار الآثار العربية : وتشتمل على الآثار الإسلامية فى

سامراء وواسط والكوفة وغيرها . وتنقسم إلى قسمين : قسم يقوم فى بناية قديمة قرب جامع مرجان تسمى « خان الأُرْتَمَة » وقسم يقوم فى القصر العباسى الواقع فى القلعة على دجلة .

٣ — متحف الأزياء : ويضم الأزياء العراقية قديمها وحديثها ، وأهم ما فيه مخلفات الملك فيصل الأول عليه الرحمة .

٤ — متحف السلاح : ويقوم على باب من أبواب السور القديم فى الجانب الشرقى يعرف اليوم بالباب الوسطانى .

٥ — خزائن الكتب

كان خلفاء بنى العباس والأثرياء من رجال دولتهم يبذلون جهوداً مشكورة فى جمع الكتب النادرة ويسهلون على أهل العلم الانتفاع بها ، فكانت قصور الخلفاء والكبراء تتزين بخزائن تشتمل على العدد الكثير من الكتب ، وقد أنشأ الرشيد بناية خاصة فى قصره جمع إليها الكثير من الكتب العربية وغير العربية ثم جاء المأمون من بعده فزاد فى ثروة هذه الخزانة وأطلق على البناية التى تضمنتها اسم « بيت الحكمة » فكانت تشتمل على الكتب الشرعية واللسانية وما ترجم عن اليونانية والفارسية

والسنسكريتية والكلدانية والقبطية . وتحول بيت الحكمة فى زمنه إلى مدرسة عظيمة تضم جماعة من المترجمين عن اللغات الأعجمية على اختلاف ضروبها ، والمؤلفين من علماء العربية ورجال الدين والفلسفة ، كما تضم جماعة من الوراقين الذين عهد إليهم بنسخ الكتب . ولهذا البيت قيّم يقال له صاحب بيت الحكمة ، ثم اقتدى الكبراء بالخلفاء وأنشأوا دوراً للكتب خاصة وعامة . ومن أشهر الدور العامة «دار سابور بن أردشير» فى الجانب الغربى ، وقد أودعها ألوفاً من المجلدات النادرة الثمينة ، وقد كان يتردد إليها أبو العلاء مدة مكثه فى بغداد ، وإليها يشير بقوله :

وغنت لنا فى دار سابور قينة
من الورق مطراب الأصائل ميهالُ
رأت زهراً غضاً فهاجت بمزهر
مثانيه أحشاء لطفن وأوصالُ

واحترقت هذه الخزانة فى فاتحة استيلاء السلاجقة على بغداد . ولما أنشئت النظامية أنشئت فيها خزانة عظيمة احتوت على كتب كثيرة فى علوم كثيرة ، ثم كلما أنشئت مدرسة ضمت إليها خزانة كما مرّ ذلك فى الكلام على مدرسة المستنصر . وأعظم كارثة

أصيبت بها خزائن الكتب فى بغداد هى كارثة المغول ، فقد أتلفوا منها الشىء الكثير ، ولم تزل بعد ذلك خزائن الكتب موضع الرعاية من رجال الحكومات المتعاقبــة إلى أن فشا الطاعون فى بغداد على عهد الوالى داود باشا ، ورافقه طغيان دجلة وحريق هائل أودى كل ذلك بكثير من خزائن الكتب ، ولما اشتدت المجاعة فى القرن الثالث عشر الهجرى أخذ الناس يبيعون الكتب القيمة بأبخس الأثمان ، وأقبل جماعة من تجار الفرنج وعملائهم على شرائها . وقد حدثنى بعض الأشياخ المعمَّرين أنه كان يرى بعينه سفناً تنحدر إلى البصرة لا تحمل إلا الكتب ، ومن هناك تشحن فى السفن البخارية إلى ديار الفرنجــة ، وقال إنه رأى بأم عينه صحاح الجوهرى بخط امرأة بغدادية ذكرت فى آخره أنها كتبته وهى إلى جنب ولدها ، وكثيراً ما كانت تحرك المهد برجلها وهى تكتب .

أما اليوم فلا تكاد تخلو مدرسة من المدارس التابعة للأوقاف فى بغداد من خزانة كتب تكثر فيها المخطوطات ، وقد جمعت وزارة الأوقاف سنة ١٩٢٨ الكثير من تلك الكتب فى بناية خاصة ، واتخذت وزارة المعارف من هذه البناية خزانة لكتبها

وأطلقت عليها اسم « المكتبة العامة » وتشتمل هذه الخزانة على زهاء ١٥٫٠٠٠ كتاب ، أما مكتبة الأوقاف التى أشرنا إليها فتحتوى على ١١٫٠٠٠ كتاب . وللمتحف خزانة خاصة تضم الكثير من الكتب التاريخية الثمينة تحتوى على زهاء ١٠٫٠٠٠ كتاب ، وفى البلاط الملكى خزانة تشتمل على كثير من الكتب القيمة ، وفى مجلس الأمة خزانتان إحداهما فى مجلس الأعيان وثانيتهما فى مجلس النواب ، وتحتوى الخزانتان على زهاء ٧٫٠٠٠ مجلد ، وفى الكليات العالية خزانات كتب تشتمل على مايهم أساتذتها وطلابها من المؤلفات ، وأوسع هذه الخزانات خزانة دار المعلمين العالية فانها تشتمل على زهاء ٦٫٠٠٠ كتاب .

وفى بغداد خزانات كتب خاصة تحتوى كتباً نادرة من أشهرها خزانة دير الكرمليين التى أنشأها اللغوى المحقق أنستاس مارى الكرملى ، وخزانة المحامى الفاضل عباس العزاوى ، وخزانة الوجيه البحاثة يعقوب سركيس ، وفى بغداد خزانات أخرى كثيرة ليس هذا موضع استقصائها .

٦ — القصور

قلنا سابقاً إن المنصور لما أتم بناء مدينته المدورة أنشأ فى وسطها قصراً عظيماً أطلق الناس عليه اسم « قصر الذهب » وأقام بصدره القبة الخضراء الشهيرة ، و بنى بعض مواليه وصنائعه قصوراً خارج السور . ثم أمر بإنشاء قصر عظيم وراء باب خراسان على ضفة دجلة اليمنى عند النهاية الغربية للجسر الكبير ، وسماه قصر الخلد تبركاً باسم الجنة وتفاؤلاً بأن يكون دار النعيم « بما يحويه من كل منظر رائق ومطلب فائق ، وغرض غريب ومَرادٍ عجيب » . أتم بناءه سنة ١٥٨

قصر الرصافة : أمر المنصور بإنشائه على شرقى دجلة سنة ١٥١ ، وهو أول بناء أنشىء فى الجانب الشرقى ، وقد أنشأ المنصور له سوراً وخندقاً ، واتخذه المهدى مقاماً له عند قدومه من الرى بعسكره سنة ١٥١ ، وجعل ما حوله معسكراً لجنده فأنشأ كبار القواد منازل لهم حول القصر ، ثم زيد فى القصر وأضيف إليه الكثير مما يجاوره من الأبنية ، ثم تكاثرت الأبنية حول القصر فتألف من مجموع ذلك محلة كبيرة عرفت بمحلة الرصافة ،

وهى واقعة إلى جوار مشهد الإمام أبى حنيفة من الجهة الجنوبية ، ولم يبق منها اليوم رسم ولا طلل

قصر عيسى : هو قصر بناه أو أقام فيه عيسى بن على عم المنصور ، قالوا : وهو أول قصر بناه الهاشميون فى أيام المنصور ببغداد . قال ياقوت فى معجمه: « وكان (قصر عيسى) على شاطىء نهر الرُّفيل عند مصبه فى دجلة ، وهو اليوم فى وسط العمارة من الجانب الغربى ، وليس للقصر أثر الآن ، إنما هناك محلة كبيرة ذات سوق تسمى محلة قصر عيسى » .

وقد بالغوا فى سعة هذا القصر حتى قالوا إنه كان يضم زهاء أربعة آلاف نسمة من الأمراء والحريم والحشم والخدم .

قصر الوضاح : هو قصر بناه الوضَّاح بن شبا عند ما ولاه المنصور أمر الشرقية من محلة الكرخ ، والشرقية محلة تقع إلى جنوب نهر الصراة ، وقد أُلحق بهذا القصر مسجداً يقال له مسجد الوضاح ، وفيه يقول على بن الجهم :

سقى الله باب الكرخ من متنزه إلى قصر وضاحٍ فبِركة زُلزُل
منازل لا يستتبع الغيث أهلها ولا أوجه اللذات عنها بمعزل
منازل لو أن امرأ القيس حلها لأقصر عن ذكر الدخول فحومل

وبركة زُلزل هى بركة أنشأها زلزل الموسيقى المشهور فى الجانب الغربى ، ثم وقفها للناس يستقون منها ويتنزهون حولها .

قصر السلام : هو قصر بناه محمد المهدى سنة ١٦٤ فى موضع يقال له عيسى باذ ، وفى إطلاق هذا الاسم عليه تفاؤل بالسلامة لا يخفى ، وإشارة إلى مايشتمل عليه هذا القصر من النعيم المقيم . قالوا وقد بلغت نفقات إنشاء هذا القصر ٥٠ مليون درهم ، وهو رقم لا يخلو من مبالغة ، ولكنه كذلك لا يخلو من الدلالة على ضخامة ما أنفق على ذلك القصر .

القصر الحَسَنى : أنشأ جعفر بن يحيى البرمكى قصراً عظيماً على دجلة فى الجانب الشرقى ؛ وكان من الضخامة بحيث زعم بعض الرواة أنه أنفق عليه زهاء عشرين مليون درهم ، وهذا الرقم أيضاً لا يخلو من مبالغات الأعاجم . وكان هذا القصر واقعاً تحت محلة المخرِّم ، وكان يعرف فى أول عهده بالقصر الجعفرى ، ثم أهداه صاحبه للمأمون فصار يعرف بالقصر المأمونى ، ولكنه بقى تحت تصرف جعفر بن يحيى إلى حين مقتله ، وحينئذ تصرف المأمون فيه تصرفاً فعلياً ، وكان من أعز القصور عليه لما كان يشتمل من وسائل البهجة ومعالم السرور ، ولذلك أضاف إليه ما يزيد

فى معالم بهجته . من ذلك ميدان واسع للعب الكرة والصولجان، كما أضاف إليه حَيْر الوحوش ، وهو موضع يشبه ما نسميه اليوم بحديقة الحيوانات،ومد إليهفرعاً من النهرالمعروف بالمعلى . ثم أهداه المأمون للحسن بن سهل على أثر زواجه من بوران ابنته ، فسمى القصر الحسنىّ ، فزاد فيه الحسن زيادات مهمة ثم أهداه إلى ابنته بوران زوج المأمون ، ثم انتقل هذا القصر إلى حوزة الخلفاء فى خلافة المعتمد على الله أو االمعتضد بالله،فوسعه وأضاف إليه المبانى التى أنشأها على الميدان الذى كان منذ عهد المأمون وعمل على مجموع مبانيه سوراً ، واستحدث ميداناً جديداً من الشرق فهدم الدور المجاورة بعد أن اشتراهامن أهلها لتوسيع ذلك الميدان .

قصر الفردوس : شيده المعتضد إلى جوار القصر الحسنى، وقد غلب اسم هذا القصر على مجموعة القصور التى أنشأها الخلفاء حول القصر الحسنى وهى كثيرة ، منها :

قصر الثريا : وهو من بناء المعتضد أيضاً على بعد نحو الميلين من القصر الحسنى ، وقد وصل الخليفة بينهما بطريق معقودة تحت الأرض . وذكر المسعودى أن نفقة قصر الثريا بلغت ٤٠٠ ألف دينار ، وأن مساحته المربعة بلغت ثلاثة فراسخ .

قصر التاج : وهو قصر وضع أساسه المعتضد أيضاً وأتمه ابنه المكتفى من بعده، وهو على دجلة تحت القصر الحسنى ، وأقيمت عند أساساته مسناة عظيمة لتصد عنها تيار دجلة . وأنشأ المكتفى وراءه من القباب والمجالس ما تناهى فى توسعته وتعليته . وذكر المسعودى أن اصطبلات هذا القصر كانت تشتمل على تسعة آلاف من الخيل والبغال والجمال .

وقد تبارى الخلفاء والأمراء فى إنشاء القصور وبالغوا فى توسيعها وتأنقوا فى زخرفتها حتى استبد مجموعها بنحو ثلث الرقعة التى قام عليها الجانب الشرقى من بغداد . ولو حاول مؤرخ أن يستقصى القصور التى أقامها الخلفاء والأمراء وكبراء رجال الدولة وذوى اليسار من البغداديين لاحتاج فى وصف ذلك إلى أكثر من مجلد .

وحسب القارىء أن ننقل له الحكاية التالية ليتبين له مبلغ ما وصلت إليه تلك القصور من السعة وما اشتملت عليه من عجائب . ذكر الخطيب البغدادى وغيره نقلا عن شاهد عيان ما ملخصه : أنه ورد رسول لصاحب الروم فى أيام المقتدر بالله ، ففرشت قصور الخلافة بالفرش الجميلة وزينت بالآلات الجليلة ، ورتب الحجاب وخلفاؤهم والحواشى على طبقاتهم على أبوابها

ودهاليزها وممراتها ، وكان فى قصر الخليفة إذ ذاك سبعة آلاف خادم منهم أربعة آلاف من البيض وثلاثة آلاف من السود ، وعدد الحجاب سبعمائة ، وعدد الغلمان السودان غير الخدم أربعة آلاف غلام . ووقف الجند صفين بالثياب الحسنة وتحتهم الدواب بمراكب الذهب والفضة وبين أيديهم الجنائب على مثل هذه الصورة ، وقد أظهروا العدد الكثير من الأسلحة المختلفة ، وكان عددهم مائة وستين ألف فارس ، اصطفوا من أعلى باب الشماسية إلى قريب من قصر الخلافة . وبعدهم الغلمان الحجرية والخدم الخواص الدارية والبرانية إلى حضرة الخليفة ، بالبزة الرائعة والسيوف والمناطق المحلاة ، وأسواق الجانب الشرقى وشوارعه وسطوحه ومسالكه مملوءة بالعامة النظارة ، وقد استؤجر كل دكان وغرفة مشرفة بمبالغ كثيرة ، وفى دجلة عبثت ضروب السفن المزينة بأفضل زينة مرتبة على أحسن ترتيب . وسار الرسول ومن معه من المواكب إلى أن وصلوا إلى الدار ودخل الرسول فمُرّ به على دار نصر الحاجب ورأى ضففاً (١) كثيراً ومنظراً عظيما ، فظن أنه الخليفة وتداخلته له هيبة وروعة ،

---

(١) الضفف كثرة الناس

حتى قيل له إنه الحاجب ، وحمل من بعد ذلك إلى الدار التى كانت برسم الوزير ، وفيها مجلس أبى الحسن علىّ بن الفرات يومئذ ، فرأى أكثر مما رآه لنصر الحاجب ، ولم يشك فى أنه الخليفة ، حتى قيل له هذا الوزير . وأجلس بين دجلة والبساتين فى مجلس قد علقت ستوره واختيرت فرشه ونصبت فيه الدسوق وأحاط به الخدم بالأعمدة والسيوف ، ثم استدعى إلى حضرة المقتدر بالله بعد أن طيف به فى الدار ، وشاهد دار الشجرة «وكانت شجرة من الفضة وزنها ٥٠٠ ألف درهم قائمة فى وسط بركة عليها أطيار مصوغة من الفضة والذهب تصفر بحركات قد جعلت لها ، وللشجرة ورق بأشكال وألوان مختلفة ، وكان إلى جانبيها تماثيل ثلاثين فارساً فى كل جهة خمسة عشر ، ألبسوا الديباج وغيره وفى أيديهم مطارد يدورون على خط واحد خبباً وتقريباً [١] فيظن أن كل واحد منهم إلى صاحبه قاصد » فتعجب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده .

وأحصى شاهد عيان الستور الحريرية المطرزة بأنواع الزينة ،

---

(١) ضربان من السير .

فكانت ثمانية وثلاثين ألف ستر ، وكانت البسط التى فرشت فى الممرات اثنتين وعشرين ألف قطعة ، هذا عدا ما فى المقاصير والمجالس وما علق على الجدران من فاخر البسط ونادرها .

ومما شاهده الرسول حير الوحوش ، وكان فيها قطعان تقرب من الناس وتشمهم وتأكل من أيديهم ، وشاهد فيها أربعة من الفيلة مزينة بالديباج والوشى على كل فيل ثمانية نفر من السند والزراقين بالنار ، وشاهد فيها موضعاً فيه مائة سَبُعٍ ، خمسون يمنة ، وخمسون يسرة . كل سبع منها فى يد سَبّاع ، وفى رءوسها وأعناقها السلاسل .

ومما شاهده الجوسق المحدث وهو دار فى وسطها بركة رصاص قلعى وحولها نهر من الرصاص أيضاً ، والرصاص القلعى يحاكى الفضة المجلوة لوناً ، وطول البركة ثلاثون ذراعاً فى عشرين فيها أربعة زوارق لطاف .

ومروا بالرسول على الفردوس فكان فيه من الفرش والآلات ما يبهر الناظر ويبهج الخاطر ، وفى دهاليزه عشرة آلاف جوشن مذهبة معلقة ، وفى بعض ممراته نحو عشرة آلاف درقة وخوذة وبيضة ودرع وزردية وجعبة محلاة وقسى معلقة على الجانبين .

وعلى الجملة فإنه قد طيف به على ثلاثة وعشرين قصراً ، وكان آخر المطاف الصحن التسعيني ومنه وصلوا إلى حضرة المقتدر بالله وهو جالس فى قصر التاج .

وقد أقام بنو بويه بعض القصور على آثار قصور الخلفاء القدماء أو ما يقرب منها ، أما السلاجقة فإنهم لم ينشئوا شيئاً من القصور ، وإذا قدم بعضهم إلى بغداد أقام فى بعض القصور القديمة بعد إصلاحها وتأثيثها . ولم يبق اليوم لتلك القصور من عين ولا أثر ، سوى أطلال قصر فى القلعة أطلقت عليه دائرة الآثار اسم القصر العباسى ، وهذا القصر كان يتصل بمحلة المخرم ، وليس فيه من الكتابة ما يهدى إلى بانيه أو ساكنيه .

وفى بغداد اليوم قليل من المبانى المهمة يأتى فى طليعتها « قصر الزهور » أمر بإنشائه المغفور له الملك فيصل الأول فى الحارثية على يمين الداخل بغداد من الجانب الغربى . وقصر الرحاب وهو على مقربة من قصر الزهور فى الحارثية أيضاً على يسار الداخل إلى بغداد من الجانب الغربى ، أمر بإنشائه صاحب السمو الأمير عبد الإله ولى العهد والوصى على عرش العراق . والقصران يعتبران أفخم ما بنى فى مدينة السلام فى هذه الأيام .

ومن المبانى التى أنشئت فى العهد الأخير « قاعة الملك فيصل الثانى ، وبهو أمانة العاصمة » فى باب المعظم ، وهما من إنشاء أمانة العاصمة . ومنهـا البناء القائم على أضرحة الملوك الهاشميين وأمرائهم ، وهو على مقربة من مشهد الإمام الأعظم ، ويشبه أن يكون على البقعة التى كانت عليها قبور خلفاء بنى العباس أو على مقربة منها . ويمكن أن يلحق بهذه الآثار التماثيل التى أقيمت فى العهد الأخير وهى ثلاثة :

١ — تمثال الملك فيصل الأول وهو فى الجانب الغربى فى وسط شارع يعرف بشارع الملك فيصل ، على مقربة من رأس الجسر المعروف اليوم بجسر الملك فيصل أيضاً .

٢ — تمثال مود وهو يمثل القائد مود الذى احتل بغداد سنة ١٩١٧ ، وهو قائم فى الجانب الغربى أيضاً أمام دار السفارة البريطانية على مقربة من تمثال الملك فيصل .

٣ — تمثال عبد المحسن السعدون ، وهو فى الجانب الشرقى فى الشارع الذى يعرف بشارع السعدون على مقربة من الباب الشرقى .

٧ – الأنهــــــر

كانت تنساب فى جانبى بغداد أنهار كثيرة منها الواسعة التى تتسع لسير السفن الصغيرة والزوارق ، ومنها الضيقـة التى هى بالسواقى أشبه منها بالأنهار .

أنهر الجانب الغربى : الجانب الغربى أكثر أنهراً من الجانب الشرقى ، ومرجع كل أنهره إلى نهرين كبيرين أحـدهما يأخذ ماءه من دجلة وهو دجيل إلى الشمال من بغداد . والثانى يأخذ من الفرات وهو نهر عيسى ، ومنبعه إلى الغرب من بغداد ويصب جنوبيها فى دجلة .

أما النهر الأول فيتفرع عنه نهر بطاطيا ، وعلى جانبى هذا النهر ضياع و بساتين كثيرة حتى إذا قرب من بغداد انشعب منه نهر يدخل فى مدينة المنصور المدورة ، وكان مجراه داخل المدينة معمولاً من خشب الساج ، ثم ينشعب من نهر بطاطيا نهر آخر ينساب فى مدينة بغداد خارج مدينة المنصور ، وفى المدينة يتشعب إلى أنهار عديدة . وينشعب من نهر بطاطيا نهر ثالث يجىء

نحو بغداد خارج المدينة المدورة أيضاً . قال الخطيب : وهذه الأنهار كلها كانت مكشوفة إلا التى تمر منها فى الحربية فإنها كانت تجرى فى قنوات تحت الأرض .

أما نهر عيسى فكان يجرى من الفرات على مقربة من الأنبار حتى يصب فى دجلة ، وكان على جانبيه كثير من القرى والضياع والبساتين ، ومنه تنشعب أكثر الأنهار التى كانت تنساب فى بغداد الغربية ، وأول نهر ينشعب منه نهر الصراة وهو من أشهر أنهار بغداد ، ومنه يتفرع كثير من أنهار الجانب الغربى ، وهو الطريق الأوسع للسفن التى تأتى من الفرات إلى دجلة أو تذهب منها إليه ، والنهر الثانى الذى يتفرع من نهر عيسى هو نهر المحول ، ومنه تتفرع أنهار كثيرة تخترق بغداد . وإنما سمى المحول لأن السفن التى تنحدر فى نهر عيسى من الفرات كانت تحول حمولتها فى صدر هذا النهر إلى سفن أصغر منها أو إلى البر ، كى تحمل على الدواب ، لأن نهر عيسى وما يتفرع عنه يضيق عن حمل السفن التى تجرى فيه بعد انشعاب نهر الصراة والمحول ، وكذلك تفعل السفن الصغيرة التى تأتى من

دجلة ، فإنها تحول حمولتها إلى سفن أخرى أكبر منها لتصعد فى نهر عيسى إلى الفرات .

والنهر الثالث الذى يتفرع من نهر عيسى هو نهر كرخايا ، يتفرع منه تحت نهر المحول ، ومنه تتفرع أنهار تسقى ضياعاً و بساتين على جانبيه إلى أن يدخل بغداد و يمر بعدة قناطر ، ومنه تتشعب كل أنهار محلة الكرخ التى من أشهرها نهر رزين ونهر العمود ونهر البزّازين ونهر الدجاج ونهر القلائين ونهر طابق ، و بعض هذه الفروع يصب فى دجلة و بعضها فى الصراة . ومن نهر كرخايا يتفرع نهر يدخل مدينة المنصور فى مجار من خشب الساج ، فكان أهل المدينة المدورة يشربون من ماء دجلة وماء الفرات .

أنهر الجانب الشرقى : لم يكن فى الإمكان عند إنشاء الجانب الشرقى أن تُشق أنهاره من دجلة لانخفاضها وارتفاع أرضه ، لذلك اضطر العباسيون أن يشقوا أنهاره من نهرين : أحدهما يقال له نهر بين و يتفرع من النهروان والثانى نهر الخالص و يتفرع من نهر ديالى . أما الأول فيتفرع عنه نهر يقال له نهر موسى و يمر بقصور الخلافة حتى إذا تجاوز قصر الثريا تنشعب منه عدة أنهار

من أشهرها نهر المعلى . أما النهر الثانى فينشعب منه نهر يقال له نهر الفضل ومنه ينشعب نهر المهدى . وكان معظم المحلات الشمالية من الجانب الشرقى تستقى من الأنهار المتشعبة من نهر الفضل المتشعب من نهر الخالص ، ومعظم المحلات الجنوبية تستقى من الأنهر المتفرعة من نهر موسى المتفرع من نهر بين المتفرع من النهروان .

ولم يبق فى الجانبين من هذه الأنهر اليوم أثر ولا عين ، كما لم يبق شىء من الأمارات التى تهدى إلى مواضعها . وإذا حاول المنقبون الحصول على أثارة من علمها فعليهم أن يثيروا الأرض لعلهم يعثرون على بعض القناطر التى كانت تقوم عليها .

٨ — الجسور

وصل المنصور بين جانبى بغداد بجسر من السفن . ثم أقام لنفسه ولحشمه جسرين وللناس ثلاثة جسور، أحدها للنساء خاصة. وفى زمن الرشيد أقيم جسران على دجلة ، وكذلك فعل الأمين فمدّ جسرين أحدهما للذاهبين إلى الجانب الشرقى والآخر للذاهبين إلى الجانب الغربى . وبقيت هذه الجسور كلها إلى

أن قتل الأمين فعُطِل بعضها . وكان على دجلة فى زمن المأمون ثلاثة جسور فقط عُطل واحد منها فى آخر عهده .

وكانت تلك الجسور زينة دجلة وحليتها ، فكانت الشعراء تتبارى فى وصفها ، قال على بن الفرج الفقيه :

أياحبذا جسر على متن دجلة بإتقان تأسيس وحسن ورونق
جمال وفخر للعراق ونزهة وسلوة من أضناه فرط التشوق

ولم يزل أمر الجسور على دجلة بين المد والجزر إلى عهدنا هذا . وقد أدركنا فى بغداد جسراً واحداً يصل بين جانبيها مصنوعاً من السفن ، يقطع عند فيضان دجلة وعند اشتداد الريح فيلجأ الناس إلى استخدام القفف والقوارب وكذلك يقطع لمرور السفن . وقد احترق هذا الجسر الليلة التى غادر فيها الجيش العثمانى بغداد ، وبعد عدة شهور أقامت حكومة الاحتلال جسراً من السفن الحديدية ، ثم أقامت آخر إلى الجنوب منه أكثر إتقاناً من الأول ، فصار لبغداد جسران شمالى وجنوبى . وفى النهاية أقيم مقام هذين الجسرين جسران ثابتان قائمان على دعائم من الاسمنت المسلح ونقل أحد الجسرين السابقين إلى جنوبى بغداد. وإذا نحن حسبنا الجسر الموصل بين الأعظمية والكاظمية فى

عداد جسور بغداد يصبح في بغداد اليوم أربعة جسور ، اثنان ثابتان و اثنان عائمان .

٩ — الحمامات

اشتهر البغداديون بالنظافة ، ولهذا أكثروا من بناء الحمامات وتفننوا في إتقان صنعها ونظافتها . فقد ذكر الخطيب البغدادى فى تاريخه أن عدد الحمامات فى عهد الرشيد والأمين بلغ ستين ألفاً ، قالوا : وأحصيت فى زمن المقتدر فكانت سبعة وعشرين ألفاً . ونزلت فى آخر دولتهم إلى خمسة آلاف ثم إلى ثلاثة آلاف ، قال ابن جبير : « ذكر لنا أحد أشياخ البلد أنها بين الشرقية والغربية نحو ألفى حمام وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به ، فيخيل للناظر أنه رخام أسود صقيل » اهـ

وقد أخذ هذا العدد يتضاءل بتضاؤل أمر هـذه المدينة إلى عهدنا هذا . ففى الجانب الغربى اليوم ثلاث حمامات للرجال ومثلها للنساء ، وفى الجانب الشرقى نحو ضعفى هذا العدد ، وليست من الإتقان والنظافة بالمكانة التى عرفت بها حمامات بغداد فى عصور ازدهارها . على أن أوساط الناس ووجهاءهم أخذوا

يستغنون اليوم عن ارتياد الحمامات العامة بما ينشئونه فى منازلهم من حمامات خاصة ، ولا يكاد يخلو منزل من أوساط المنازل من حمام على طراز شرقىّ أو غربىّ أو على الطرازين معاً ، وبقيت الحمامات العامة لفقراء الناس وغربائهم . ونحن لا نشك فى أن تلك الأرقام التى ذكرها الأقدمون فى عدد حمامات بغداد مبالغ فيها ، ولكنها على كل حال تدل على كثرة وسائل النظافة ومعدات الترف ، مما لفت إليها أنظار الناس فى القديم والحديث ، فتساءلوا عنها وهم بين مصدق ومكذب . وقد وقفنا على بعض أوصاف تلك الحمامات فى رحلة ابن بطوطة فآثرنا نقلها بالنص ، قال : « وفى كل حمام منها خلوات كثيرة كل خلوة منها مفروشة بالقار مطلىّ نصف حائطها مما يلى الأرض به ، والنصف الأعلى مطلى بالجص الأبيض الناصع ، فالضدان بها مجتمعان متقابل حسنهما ، وفى داخل كل خلوة حوض من الرخام فيه أنبوبان أحدهما يجرى بالماء الحار والآخر بالماء البارد ، فيدخل الإنسان الخلوة منها منفرداً لا يشاركه أحد إلا إذا أراد ذلك ، وفى زاوية كل خلوة أيضاً حوض آخر للاغتسال فيه أيضاً أنبوبان يجريان بالحار والبارد ، وكل داخل يُعطى ثلاثاً من الفوط إحداها

يتزر بها عند دخوله ، والأخرى يتزر بها عند خروجه ، والأخرى ينشف بها الماء عن جسده . ولم أر هذا الإتقان كله فى مدينة سوى بغداد . »

الحيــــاة العقلية

كان المسلمون فى أواسـط القرن الثانى الهجرى يتدارسون علوماً كثيرة منها الشرعية ومنها اللسانية ومنها الكونية ، وكان جل اعتمادهم فى مدارساتهم على المواجهة والمشافهة ، وكان الطلبة يقيدون مروياتهم بالكتابة لتكون تذكرة لهم عند طغيان النسيان، وكانت الحافظة عندهم هى المرجع الأول وعليها المعول ، وكانوا يقولون فى مقام الذم : هل هو إلاَّ لحانة صحفى ! لمن يأخذ العلم من الصحف دون المشايخ ، ومن هذه المادة اشتقوا كلمة التصحيف وهو الخطأ فى قراءة اللفظ ، ولا يقع هذا عادة إلا إذا اعتمد القارىء على الصحيفة دون المشافهة، فلما أنشئت بغداد وأصبحت مقر الخلافة الإسلامية أقبل أهل الفضل إليها وأمها العلماء من كل صوب وجعلوها دار إقامتهم ، فأصبحت بذلك مباءة العلوم الإسلامية ومجتمع الفنون الأدبية ، وملتقى العلوم الكونية من

شرقية وغربية ، فزخرت بالنور وازدهرت بالفضائل ، وأينعت فيها ثمار العقول ، وصارت لحواضر المعمورة مناراً ولأعاظم الفضلاء مزاراً .

ثم إنّ العلوم التى كان يتدارسها المسلمون ترجع إلى ثلاث مجموعات :-

١ — العلوم الشرعية .
٢ — العلوم الكونية .
٣ — العلوم اللسانية .

العلوم الشرعية

تتألف هذه المجموعة من علوم القرآن ويأتى فى مقدمتها التفسير ، ومن علوم الحديث ويأتى فى مقدمتها تدوينها والتفريق بين صحيحها وسقيمها ، ومن الفقه وأصوله ، ومن علم الكلام ، ويقال له علم أصول الدين وعلم العقائد .

التفسير : لم يدون هذا العلم فى كتب جامعة تضم جميع سور القرآن إلا فى عصر الدولة العباسية . وأول تفسير عظيم صحيح وضع

فى هذا الباب هو تفسير[1] أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ . كتب هذا التفسير على ضفاف وادى السلام، وهو من أعظم التفاسير قدرًا وأسماها مكانة ، حتى قال الإمام أبو حامد الإسفراينى عظيم فقهاء الشافعية ببغداد : « لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيراً » وقال . أبو زكريا النووى كبير فقهاء الشام : « أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبرى . »

ويمكن أن يقال إجمالاً إن كل من كتب فى التفسير من طريق الرواية بعد ابن جرير هو عيال عليه ، وقد كتب البغداديون تفاسير كثيرة تفوت العد ، ليس هذا موضع إحصائها واستقصائها ، من أتقنها تفسير للشريف الرضى طبع بعض أجزائه حديثاً فى النجف الأشرف . وأعظم تفسير كتب فى بغداد فى أواسط القرن الثالث عشر هو « روح المعانى فى تفسير القرآن والسبع المثانى » لأبى الثناء شهاب الدين السيد محمود الألوسى (عليه الرحمة) المتوفى سنة ١٢٧٠هـ. وتفسيره هذا من أجمع التفاسير

(١) يقال له « جامع البيان فى تفسير القرآن »

وأوسعها وأسماها وأسناها ، جامع بين فصاحة التعبير و براعة التصو ير ، يستغنى به المحقق عن الكثير من كتب التفسير .

فالقارىء يرى أن هذا العلم أورق وأزهر فى مدينة السلام وأثمر وأينع فيها .

الحديث : قلّ أن ظهر محدث نابه فى مشارق البلاد الإسلامية ومغاربها إلا وقد جعل بغـداد موضع زيارته أو دار إقامته . فمن أعلام المحدثين الذين زاروا بغداد وأخذ عنهم البغداديون :

محمد بن اسماعيل البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ صاحب الصحيح الشهير. حكوا أنه زار بغداد فاجتمع عليه أصحاب الحديث من أهلها فعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها . . ثم كلما عرض عليه واحد منها قال : لا أعرفه . فلما كملت المائة اندفع يعيد كل حديث إلى سنده وكل سند إلى متنه ، فأقر له البغداديون بالحفظ ، وكان من عادة البغداديين التلطف باختبار الطارئين عليهم من العلماء . وممن تردد إلى بغداد من كبار المحدثين مسلم بن الحجاج النيسابورى المتوفى سنة ٢٦١ ، ومحمد بن يزيد بن ماجه المتوفى سنة ٢١٣ ، وأبو داود سليمان بن الأشعث المتوفى سنة ٢٧٥

وأنجبت بغداد من عظماء المحدثين وقدمائهم الإمام أحمد بن حنبل وابنه عبد الله ، وأبا الحسن على بن عمر الدارقطنى صاحب كتاب السنن المتوفى سنة ٣٨٥ ، والخطيب البغدادى ، ومن تصفح تاريخه وقف على المئات من أئمة هذا الشأن الذين أنبتتهم بغداد أو هاجروا إليها ، وجعلوها دار إقامتهم أو موضع زيارتهم .

ومن الواضح أن رجال الحديث بعد أئمة الحفاظ الأولين قد وجهوا جل عنايتهم إلى كتابة المصنفات الجامعة والمختصرة متوخين حسن التبويب وجمال التفصيل والترتيب ، مع التمييز بين صحيح الآثار وسقيمها ، ولذلك لم يكن المتأخرون فى هذا الباب إلا عيالاً على المتقدمين .

الفقه : أنشئت بغداد وفقهاء الإسلام فريقان ، فريق جعل جل اعتماده فى استنباط الأحكام الشرعية الفرعية على الكتاب والسنة النبوية والآثار المروية عن الصحابة ، وفريق آخر حكّم مع ذلك الرأى والقياس . وجلّ فقهاء الحجاز من الفريق الأول وإمامهم فى ذلك مالك بن أنس ، وجلّ فقهاء العراق من الفريق الثانى وإمامهم فى ذلك أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، وهو وإن كان كوفى المنبت إلا أنه اتخذ بغداد دار إقامته الآخرة ، فكان

عنوان مفاخرها وغرة مآثرها ، وكان فى جملة حسناته تلميذاه العظيمان قاضى القضاة أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم الأنصارى المتوفى سنة ١٨٢ صاحب كتاب « الخراج » ومحمد بن الحسن الشيبانى المتوفى سنة ١٨٩ ، وإليهما يرجع الفضل الأول فى تدوين الفقه الحنفى وترصين قواعده . وزار الإمام محمد بن إدريس الشافعى بغداد مرتين إحداهما سنة ١٩٥ والثانية سنة ١٩٨ واجتمع بعظماء فقهائها ، وفيها أملى مذهبه القديم، ولما فارقها تطور مذهبه بعض الشىء بسبب ما اطلع عليه فى بغداد من الآراء ، ويقال لمذهبه بعد رجوعه من بغداد « الجديد » . وممن لقى الشافعى فى بغداد من عظماء الفقهاء الإمام أحمد بن حنبل ، وقد تلقحت آراؤه بآرائه فتطور مذهب ابن حنبل بعض التطور . وكان معظم البغداديين على مذهبه ، ثم كثر بينهم الشافعية والحنفية . ومن مشاهير فقهاء الشافعية فيها أبو حامد الإسفرايني المتوفى سنة ٤٠٦ ، كانت حلقته فى الكرخ تضم زهاء ٧٠٠ متفقه ، وأقضى القضاة على بن محمد الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ صاحب الأحكام السلطانية ، والحاوى ، فى بضعة عشر مجلداً ، وأبو إسحاق ابراهيم ابن على الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٦ ، وكانت إليه رياسة المدرسة

النظامية ، وكتبه فى المذهب أشهر من أن تذكر . ومن أكابر فقهاء الحنفية البغداديين أبو الحسن أحمد بن محمد القُدُورى المتوفى سنة ٤٢٨ ، ومن كتبه التجريد ويشتمل على الخلاف بين الشافعى وأبى حنيفة وأصحابه ، وهو بديع فى بابه .

ولما زار ابن جبير بغداد بهره فقهاؤها فأعجب بكثرتهم وسعة معارفهم . وفى بغداد أزهر الفقه الجعفرى الذى يرجع بأصوله إلى الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر (رضى الله عنه) .

وبالجملة فإن للفقه فى بغداد المقام الأول من بين سائر العلوم ، ولم يزل هذا السر إلى عهدنا هذا ، فإن أول مدرسة عالية أنشئت فى بغداد على النمط الحديث مدرسة الحقوق التى تعتمد فى معظم مادتها على الفقه الإسلامى ، وقد أسمى فيلسوف المعرة محلة الكرخ أو بغداد « محلة الفقهاء » :

بمحلة الفقهاء لا يعشو الفتى ناری ولا تُنْضى المطىَّ عزائمى

علم الكلام : ويسمى علم العقائد وعلم أصول الدين أيضاً .
كان السلف الصالح من الصحابة والتابعين يستدلون على عقائدهم بظاهر الكتاب والسنة ، وإذا تعذر عليهم فهم المتشابه منهما آمنوا بظاهره ووكلوا أمر الباطن إلى الله مع التنزيه الأكمل للذات

الإلهية عن كل ما يشم منه رائحة النقص أو التشبيه أو التجسيم . غير أن هذه الطريقة في فهم العقائد لم تقنع الجماعات التي دخلت في الاسلام من أهل الأديان الأخرى التي كانت تعج بالشبه والخلافات ، فركنوا في تقرير العقائد ورد الشبه إلى الأقيسة العقلية والأشكال المنطقية .

ولما مصرت بغداد كان المسلمون ينقسمون في تقرير أصول عقائدهم إلى فريقين : فريق يعتمد على المنقول من الكتاب والسنة ويقال لهم الجماعة وأصحاب الحديث ، وفريق يعتمد في تقرير عقائده على المعقول ، وإذا تعارض المعقول والمنقول عمد إلى تأويل المنقول ، وهؤلاء هم المعتزلة ، وكان الصدر الأول من خلفاء بني العباس يؤيدون أهل هذا المذهب وينصرونهم على أتباع المذهب الأول . وجرت في بغداد خطوب بين الفريقين ذهب ضحيتها بعض رجال الحديث ، ولاسيما على عهد المأمون الذي حاول أن يشغل الناس بالمنازعات الدينية عن المنازعات السياسية فكان له ما أراد ، وكان على رأس المعتزلة في عهده القاضي أحمد بن أبي دواد الإيادي ، وعلى رأس الجماعة الإمام أحمد بن حنبل ، فكانت بين الفريقين مناظرات ، وكانت منازعات أدت إلى اضطهادات مشينة

لا عهد للمسلمين بها من قبل . وكان فى مقدمة المسائل التى دار الخلاف حولها مسألة خلق القرآن ، فكان المعتزلة يقولون بخلقه تفاديا من تعدد القدماء ، وكان الجماعة وأهل الحديث يقولون بقدمه لأنه كلام الله والكلام قديم بقدم المتكلم . ولم ينته الجدال حول هذه المسألة إلا فى عهد الواثق عند ما أحضر بعض أشياخ الشام للمناظرة ، فقال ما معناه : لو كانت هذه المسألة من صميم الدين لأخبرنا بها سيد المرسلين ، وحيث أنه لم يثبت عنه شيء فى هذا الباب ، فلا معنى لجعلها موضوع خلاف وجدال ، وظهر فى المعتزلة رجال أولو لسن أيدوا مذهبهم بأقلام سيالة وألسنة قوالة ، مثل عمرو بن بحر الجاحظ وأبى على الجبائى وغيرهما من أئمة المتكلمين البصريين الذين لم تسلم بغداد من رشاش مباحثاتهم ، حتى ظهر بينهم أبو الحسن على بن اسمعيل الأشعرى المتوفى فى العقد الثالث من القرن الرابع . وكان فى أول أمره معتزلياً ثم سلك طريقاً وسطاً بين المعتزلة ورجال الحديث ، وكان إلى رجال الحديث أميل ، وألف فى تأييد مذهبه كتباً جمة ، بسط فيها الكلام بسطاً سهّل فهمه على الناس ، فكثر أتباعه وانضوى أكثر المتكلمين من البغداديين إلى لوائه ، ومع ذلك فان بعضهم لم يزل على مذهب

المحدثين . وأكثرية هؤلاء من الحنابلة ، وبعضهم أصرّ على الاعتزال ، فكان فى بغداد فى أواخر العهد العباسى مذاهب كلامية كثيرة مرجعها إلى ثلاثة : الأشاعرة وهم الأكثرية ، والمحدثون أو السلفيون ، والمعتزلة . وهناك جماعة من الإمامية الاثنى عشرية ، وآخرون من الزيدية ، وقليل من الإسماعيلية . وانشق من الأشاعرة فريق يقال لهم الماتريدية نسبة إلى أبى منصور محمد بن محمد الماتريدى المتوفى سنة ٣٣٣ أحد تلامذة أبى الحسن الأشعرى ، وقد خالفه فى بضع عشرة مسألة . وكثير من الأحناف في بغداد وغيرها يدينون بهذا المذهب .

أما اليوم فليس لمذهب الاعتزال فى بغداد من أثر . والناس إما أشاعرة أو ماتريدية ، وليس بين المذهبين كبير فرق . وهناك فريق يميل إلى مذهب السلف ، وفريق يدين بمذهب الإمامية الاثنى عشرية .

العلوم الكونية

ويراد بها علوم الأوائل من المنطق والطبيعيات والرياضيات والإلهيات . وتنقسم الطبيعيات إلى علوم : الفيزياء والكيمياء

والمواليد الثلاثة والطب والصيدلة والفلاحة . وتنقسم العلوم الرياضية إلى علم الحساب وعلم الجبر وعلم الهندسة وعلم الآلات وعلم الحيل (الميكانيكا) وعلم الفلك. ومن متعلقاته علم الجغرافيا الرياضية .

وتشمل الإلهيات علم ما وراء الطبيعة من الروحانيات والمدركات العقلية ، كالبحث عن الخالق وصفاته والقوى النفسية والملائكة والجن وما إلى ذلك .

ومن علوم الأوائل علم تدبير المنزل وعلم تدبير المملكة ، وهو علم السياسة ، وعلم المال ، وعلم الأخلاق ، وعلم الموسيقى .

كانت هذه العلوم شائعة بين الأمم المتحضرة فلما افتتح العرب بلاد العراق والشام ومصر وغيرها وجدوا الكثيرين من أهلها يتدارسون هذه العلوم و يتناقلونها بلغات شتى . وفى العصر الأموى ترجمت بعض هذه العلوم إلى اللغة العربية ولا سيما علم الطب والسياسة . ولما دالت الدولة لبنى العباس واستقر خلفاؤهم فى بغداد قربوا إليهم الكثير من حملة هذه العلوم وطلبوا منهم نقلها إلى اللغة العربية . وفى مقدمة الخلفاء الذين عناهم هذا الشأن أبو جعفر المنصور ، فإنه استقدم كثيراً من الأطباء والمترجمين ،

فترجموا له عن اليونانية والفارسية والهندية كتباً كثيرة فى الطب والفلك والسياسة . ومن أشهر أولئك التراجمة جورجس بن جبريل الذى ترجم للمنصور كتباً كثيرة عن اليونانية ، ونو بخت المنجم وابنه أبو سهل ، ومن أشهر مَن ترجم للمنصور من الفارسية إلى العربية عبدالله بن المقفع ، وممن ترجم له عن الهندية محمد بن ابراهيم الفزارى ، ترجم له كتاباً فى النجوم . ثم لما كان زمن الرشيد أمر بإعادة النظر فى الكتب المترجمة كما أمر بترجمة كتب أخرى ، وعهد بذلك إلى جماعة من حكماء زمانه منهم طبيبه يوحنا بن ماسويه والحجاج بن مطر وأبو حسان وسلم صاحب بيت الحكمة .

ولما كان عهد المأمون اشتدت الرغبة فى نقل علوم الأوائل إلى اللغة العربية ، فألف لذلك لجنة برياسة حنين بن إسحق العِبَادى وكان يتقن العربية والسريانية والفارسية واليونانية ، وكان من أعضاء اللجنة الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة ، وأغدق المأمون على رئيس اللجنة وأعضائها العطاء ، حتى إنه كان يعطيهم عدل ما ينقلونه من الكتب ذهباً ، فكانوا يكتبون على ورق غليظ وبحروف كبيرة وأسطر متباعدة ، وكان أكثر الكتب التى نقلت فى

عهد المنصور والرشيد فى الطب والسياسة والنجوم . أما فى عهد المأمون فقد أقبل المترجمون على ترجمة كتب الفلسفة والرياضيات وعلوم الطبيعة ، وأرسل المأمون جماعة من المترجمين إلى بلاد الروم فاختاروا كتباً حملوها إلى بغداد وترجمت وتعلمها الناس ، واقتدى بالخلفاء غيرهم من الأمراء والوزراء وأهل اليسار من العقلاء فأغدقوا على المترجمين العطاء لنقل ما يرغبون فيه من كتب الأوائل إلى العربية ، فنفقت أسواق هذه العلوم وزخرت بها بغداد . ولكثرة ما كان يلقاه الحكماء فى بغداد من الإكرام والاحترام فى قصور الخلفاء والأمراء والوزراء والقادة وأهل اليسار أقبلوا ينسلون إليها من كل حدب و يتخذونها دار إقامة لهم ، فقصدوها من الشام والعراق وفارس والهند ، وفيهم النساطرة والهنود والفرس فتضافرت الهمم على ترجمة كتب الأقدمين والتأليف فى مختلف علوم الكون على اختلاف فروعها ، فأصبحت بغداد بذلك ينبوعاً فياضاً بهذه العلوم يغترف منه الناس فى سائر الحواضر الإسلامية ، ومن أشهر الأسر التى جعلت بغداد موطنها آل بختيشوع ، نشأ منهم فى بغداد عدد كبير، من أشهرهم جورجس بن جبريل و بختيشوع بن جورجس وجبرائيل بن بختيشوع وغيرهم ،

وأصلهم من جنديسابور [١] ، انتقل جدهم جورجس بن جبرائيل إلى بغداد، وكذلك بختيشوع بن جورجس فتناسلوا فيها وكثروا ، وآل حنين بن إسحق العبادى أولهم حنين بن إسحق ، وهو من أهل الحيرة وجعل بغداد دار إقامته ، واشتهر من سلالته جماعة أشهرهم ابنه إسحق، وكان كأبيه فى حذق اللغات الكثيرة . وآل شاكر ، ويقال لهم أبناء موسى لأن أباهم موسى بن شاكر، فتارة ينسبون إلى أبيهم وتارة إلى جدهم، وهم ثلاثة: محمد وأحمد والحسن. أما محمد فكان واسع المعرفة بالهندسة والفلك وسائر العلوم الرياضية، وكان أحمد من أمهر الناس فى علم الحيل (الميكانيكا) وكان أبناء شاكر قد عهدوا إلى جماعة من أهل المعرفة باللغات أن يترجموا لهم ما يطلبون من كتب الرياضيات والطبيعيات والفلسفة وغيرها ، وكانوا ينفقون على ذلك نحواً من ٥٠٠ دينار فى الشهر ، ولهم مؤلفات كثيرة فى علوم شتى ، ولهم إبداعات كثيرة ولا سيا فى العلوم الرياضية ، وهم الذين قاسوا محيط الأرض قياساً دقيقاً لا يختلف عن قياس المعاصرين إلا قليلا مع دقة الآلات فى هذا العصر .

وآل الكرخى أولهم شهدى الكرخى، وكان من أوساط

---

(١) جنديسابور : بخوزستان .

التراجمة وكذلك كان ابنه إلا أنه أتقن هذا الفن في أخريات حياته

ومن مشاهير حكماء بغداد يعقوب بن إسحق الكندى المتوفى سنة ٢٦٠ ، فيلسوف العرب ، يرجع نسبه إلى ملوك كندة ، وكان واسع العلم فى الطب والفلسفة والرياضيات والمنطق والموسيقى والنجوم ، وله تآليف كثيرة فى هذه العلوم تربو على الثلثمائة ، وترجم كثيراً من كتب الأقدمين ولاسيا كتب الفلسفة ، وأوضح فيها المشكل ولخص المستصعب و بسط العويص .

ولم يكد ينقضى القرن الثالث الهجرى حتى برع البغداديون فى العلوم الكونية كلها ، وظهر فيهم الكثيرون من أعاظم الفلاسفة وكبار الأطباء الذين يعتمدون فى معارفهم على التجاريب الشخصية العملية ، منهم أبو بكر محمد بن زكريا الرازى المتوفى سنة ٣١١ صاحب البيمارستان العتيق فى بغداد ، وله فى الكيمياء تجارب كثيرة ، وقد أحصي له فى علوم الطب والفلسفة والكيمياء أكثر من ٢٠٠ كتاب . ونحن لا نشك فى أن للبغداديين حصة كبيرة فى رسائل إخوان الصفاء المشهورة . ومن شاء التوسّع فى هذا الباب فعليه بالرجوع إلى البابين التاسع والعاشر من كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة .

وقد خمدت جذوة هذه العلوم بعد أفول نجم الخلافة العباسية في بغداد . على أن بعض رجال المغول ومن خلفهم من دول الأعاجم حاولوا إحياء بعض هذه المآثر فيها، وكان في المدرسة المستنصرية رواق خاص بالطب وعلوم الأوائل ، ويظهر أنه امتدت به الحياة إلى العهد الذي أهملت فيه هذه المدرسة وأدبر أمرها . ولم تزل بعض هذه العلوم تدرس في المدارس القديمة إلى عهدنا هذا ، ولا سيما الرياضيات منها بما فيها علم الهيئة وعلم الحكمة وعلم المنطق. والبغداديون يعتبرون هذا العلم في مقدمات العلوم العقلية ، كما أن النحو يعتبر في مقدمات العلوم اللسانية ، فالحاجة إلى المنطق في سلامة التفكير كالحاجة للنحو في سلامة التعبير .

العلوم اللسانية

كانت البصرة والكوفة في العهد الأموي ينبوعين فياضين بعلوم اللسان العربي . فلما استقرت الخلافة في بغداد وأقبل الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة على تنشيط العلوم وبذل الرعاية للعلماء وفي مقدمتهم علماء اللسان العربي أقبل علماء المصرين إلى مدينة السلام حيث نالوا من خلائفها وأمرائها كل رعاية وعناية . وكان

أئمة الكوفة أسبق إلى ذلك ، فكان منهم المؤدبون لأبناء الخلفاء وأكابر رجال الدولة ، وكانت العلوم اللسانية التي يتدارسها أهل المصرين يومذاك : الأدب والنحو وفي ضمنه الصرف واللغة ، والإنشاء والخط ، والشعر والشعراء ، أما البلاغة فلم تكن من النضج بحيث يمكن أن تسمى علماً .

الأدب : وكانوا يريدون به كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل ، وهذه الرياضة تكون بالأقوال الحكيمة التي تتضمنها اللغة ، كما تكون بالمحاكاة وحسن النظر في الأمور ، والأخير يسمى أدب النفس، كما أن الأول يسمى أدب الدرس ، وهو موضوع بحثنا هذا .

وأحسن مثال لهذا العلم وأوله كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وأول كتاب وضع في بغداد على هذا النمط هو كتاب المنظوم والمنثور لأحمد بن طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ صاحب تاريخ بغداد ، قالوا إنه بلغ أربعة عشر جزءاً . ولم يبق منه اليوم إلا أجزاء قليلة مفرقة في مكاتب شتى . وكتب أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦ كتباً كثيرة في الأدب يأتي في مقدمتها كتاب « عيون الأخبار » ويعد من أقدم كتب الأدب التي

أخرجتها بغداد بعد كتاب ابن طيفور ، وكتاب أدب الكاتب ، والكتابان مطبوعان متداولان .

ثم جاء محمد بن يزيد المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ وأملى فى بغداد كتبه الكثيرة فى الأدب فى طليعتها كتابه « الكامل » الذى « يجمع ضروباً من الآداب بين منثور ومنظوم » وهو من الكتب الممتعة فى بابه ، ولقدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣١٠ كتب قيمة فى هذا الباب منها كتاباه نقد الشعر ونقد النثر ، وهما من أقدم الكتب فى بابها ، وأبو على البغدادى القالى المتوفى سنة ٣٥٦ كان من خير رسل الثقافة بين بغداد فى الشرق وقرطبة فى الغرب . وأماليه التى أملاها فى جامع الزهراء بقرطبة لم تكن إلا ثمرة دراسته فى بغداد نحواً من ربع قرن .

ثم جاء أبو الفرج الاصفهانى المتوفى سنة ٣٥٦ فأخرج للناس كتاب الأغانى فى عشرين مجلداً ونيف ، وقد وقع الاتفاق على أنه لم يصنف مثله فى بابه . وهو مطبوع متداول فلا حاجة لإطالة وصفه .

ولأبى على المحسن التنوخى المتوفى سنة ٣٨٤ كتاب أسماه نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، جمعه من المنقولات اللسانية التى

لم تدون فى كتاب فى زمانه ، وقد طبعت بعض أجزائه ، وهو جامع بين الإمتاع واللذة .

ولأبى حيان التوحيدى المتوفى فى أواخر القرن الرابع كتب قيمة فى هذا الباب، من أمتعها كتاب المقابسات وكتاب الإمتاع والمؤانسة ، وفيه من ألوان الأدب وضروب الفلسفة مايبهج النفس ويغذى العقل ، وفى ثبت كتبه كتاب اسمه « المحاضرات والمناظرات » ولعله من قبيل المقابسات لم نقف عليه ، ثم جاء الشريف المرتضى على بن الطاهر المتوفى سنة ٤٣٦ نقيب الطالبيين فى بغداد فأملى كتابه « الغرر والدرر » المعروف اليوم بأمالى المرتضى، وهى مجالس أملاها تشتمل على فنون من معانى الأدب، تكلم فيها على تفسير بعض الآيات المتشابهات من القرآن الكريم ، ثم أعقب ذلك ببعض روائع الشعر والنثر، شارحاً ذلك كله ومعرفاً بقائله ، وفى ضمن ذلك كثير من الدقائق اللغوية والمباحث النحوية والنكات الأدبية . قال ابن خلكان : « وهو كتاب ممتع يدل على فضل كثير وتوسع فى الاطلاع على العلوم . . . »

هذا ولا حاجة بنا للاسهاب فى هذا الباب لأن الثروة الأدبية

التى أنتجتها بغداد أكثر من أن تحصى عداً . وإذا نحن نظرنا إلى ما نقله ابن خلدون عن أشياخه من « أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهى أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادى ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها » وجدنا أن لبغداد الحظ الأوفر من أصول هذا الفن، ولا سيما إذا أضفنا إلى هذه الأصول الأربعة أصلاً خامساً وهو « كتاب الأغانى » للقاضى أبى الفرج الإصفهانى .

ولما أنشئت المدرسة النظامية فى بغداد أنشىء فيها كرسى لتدريس الأدب عهد به إلى أبى زكريا الخطيب التبريزى المتوفى سنة ٥٠٢ وخلفه على ذلك علىّ بن أبى زيد الفصيحىّ وتلاه أبو منصور الجواليقىّ شارح أدب الكاتب .

وفى أوائل العصر السادس الهجرى اتسع مفهوم الأدب عند العلماء فأطلقوا على العلوم اللسانية من النحو واللغة وغيرهما اسم علوم الأدب . قال الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ : « علوم الأدب يحترز بها عن الخلل فى كلام العرب لفظاً وكتابة . »

وممن أملى مجالس فى بغداد يمكن أن تنتظم فى هـذا الباب

أبو السعادات هبة الله بن على الحسنىّ المعروف بابن الشجرى البغدادى نقيب الطالبيين فى الكرخ المتوفى سنة ٥٤٢ ، فإنه أملى أربعة وثمانين مجلساً اشتملت على فوائد جمة من فنون الأدب .

وكانوا يعتبرون الغناء من فنون الأدب . قال ابن خلدون : « كان الغناء فى الصدر الأول من أجزاء هذا الفن — الأدب — وكان الكتّاب والفضلاء من الخواص فى الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه ، فلم يكن انتحاله قادحاً فى العدالة والمروءة » اهـ .

وقد ألف عبيد الله بن طاهر المتوفى سنة ٢٨٩ كتاباً أسماه « الآداب الرفيعة » جمع فيه أصول النغم وعلل الأغانى وآداب المنادمة إلى غير ذلك ، وهذا الاصطلاح يقرب جداً من الاصطلاح الذى وضعه المعاصرون للنحت والتصوير وما إليهما باسم « الفنون الجميلة »

الشعر والشعراء

لم يؤثر عن أمة من الأمم ما أثر عن العرب من كثرة الشعر والشعراء ، حتى إنهم اتخذوه ديواناً لمآثرهم ومفاخرهم وسائر

ماجرياتهم ، فهو بحق ديوان أخبارهم ومستودع أفكارهم وخزانة آثارهم ، و إليه المرجع فى تقلب أطوارهم فى جاهليتهم و إسلامهم. وكان الشاعر بينهم موضع التجلة والإكبار لأنه مدره العشيرة وحامى ذمارها والمنافح دون أحسابها .

ولما أصبحت بغداد حاضرة الخلافة تدفق إليها الشعراء من كل فج ليشهدوا منافع لهم ، وليعرضوا ما تجود به قرائحهم من الأعلاق النفيسة فى قصور خلفائها وأمرائها وكبرائها ، فوجدوا مجال القول ذا سعة ، فقالوا وأجزل لهم رجال الدولة وأولو النعمة العطايا ، فأكثروا وأجادوا ، حتى قيل إنه لم يجتمع بباب خليفة من خلفاء الإسلام من الشعراء ما اجتمع فى باب الرشيد . و إذا أنت تصفحت تاريخ بغداد للخطيب ملكك العجب لكثرة ما يمر فيه أمام نظرك من الشعراء الذين أنبتتهم بغداد أو الذين طرءوا عليها من الأطراف، حتى إنك لا تكاد تسمع بشاعر نابه فى المشرق إلا وجدت له ذكراً بين شعراء بغداد . ولو حاول مؤرخ أن يستقصيهم و يلم بأخبارهم لأخرج للناس كتاباً فى عدة مجلدات ، وقد حاول بعض المؤرخين الاستقصاء فأعياه ، وأحصى الثعالبى فى يتيمته العدد العديد من شعراء بغداد الذين عاصروه، وذكر

بعض المؤرخين أن بضع مئات من الشعراء تمالئوا على هجو المتنبى عند ما قدم بغداد فى طريقه إلى خراسان . فإذا كانت بغداد فى أواسط العصر الرابع تضم بضع مئات من الشعراء الذين يعادون المتنبى، فكم كان عدد شعرائها الذين يوالونه أو الذين على الحياد ؟. وليس المهم فى هذا الباب كثرة الشعراء وكثرة ما نظموا ، وإنما المهم الحسنات التى أسدوها على هذا الفن والابتداعات التى ابتدعوها فيه . والناقد البصير مضطر إلى الاعتراف بما لشعراء بغداد النابتين فيها والطارئين عليها من الفضل على الشعر فى تنويع أغراضه وابتكار البارع من معانيه وأخيلته ونشر الآراء الحرة والمذاهب الجديدة والبراعة فى رسم الصور المبتكرة فى الأوصاف وغيرها. كما أنه عليهم تقع تبعة إذاعة الزندقة والتشكيك فى العقائد والاسترسال وراء الأهواء، وهم أول من فتح باب الغزل فى المذكر أو — على الأقل — هم أول من وسع هذا الباب وأغرقوا فيه أيما إغراق، كما أنهم أول من وسع باب المجون وغالوا فيه غلواً تستنكره الطباع السليمة والنفوس المستقيمة ، ولم يكترثوا لما يتقيد به المؤمنون من كرائم الخلال ومحامد الخصال . وأكثر المندفعين فى هذه المسالك من الموالى الذين لم يملأ الإيمان صدورهم

ولا ارتاحت إلى الدين عقولهم من أمثال بشار بن برد وحماد عجرد وحسين بن الضحاك وأبي دلامة . نعم لا ينكر أن فى أبناء العرب فئة شايعت هؤلاء الموالى في ركوب هذه السبل بل سبقتهم وأربت عليهم ، منهم الحسن بن هانىء الحكمى ودعبل الخزاعى وابن سكرة الهاشمى . ويمكن إجمال ماجدّ فى الشعر ببغداد بمايلى :

١ — الركون إلى الأنيس من الألفاظ وهجر الغريب والحوشىّ منها ، فبعد أن كان ابن الجاهلية يستسيغ قول القائل :

وليلة نحس يصطلى القوسَ رَبُّها وأقطُعَهُ اللاتى بها يتنبّلُ
دَعَستُ على غَطْشٍ وبَغْشٍ وصحبتى سُعارٌ وإرزيزٌ ووجرٌ وأفكلُ

أصبح ابن بغداد يتغنى بمثل قول الحكمى :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء وداونى بالتى كانت هى الداء

٢ — الإكثار من الألفاظ الدخيلة ولا سيما الدالة على أنواع الخمور وضروب الأزهار وأصناف الأطعمة .

٣ — استعمال مصطلحات العلوم التى كثرت فى هذا العصر .

٤ — الاهتمام بالمحسنات البديعية اللفظية منها والمعنوية ، كالجناس والتورية ورد العجز على الصدر والطباق . وأكثر الشعراء ولوعاً بهذه المحسنات مسلم بن الوليد وأبوتمام وعبد الله بن المعتز .

٥ — الميل إلى سلاسة التراكيب وانسجامها مع الاحتفاظ بجزالة الأسلوب وظهور المعنى . هذا مجمل ماجد فى ألفاظ الشعر. أما ماجد في معانيه وأخيلته فيتلخص فيما يلى :

١ — اختراع الأخيلة الجميلة وصبها فى قوالب جذابة تبهج النفس وتسر الخاطر .

٢ — الإيغال فى استعمال الخيال الوهمى الذى لا يمكن تحققه فى الخارج كقول الحكمى :

وأخفتَ أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق

وقول بعضهم :

أسكر بالأمس إن عزمت على السكـــر غداً إن ذا من العجب

٣ — ترتيب الأفكار وتنسيقها على وجه يلتئم مع مناهج المنطق السليم والفكر المستقيم ولا سيما عند الانتقال من حال إلى حال .

٤ — سلوك الطرق الكلامية ومناهج الحكمة فى تأييد المقاصد وتأكيد المطالب ، مثل قول بعضهم وقد هجاه أحد الأشراف :

لا تضع من عظيم قدر وإن كنـ ت مشاراً إليه بالتعظيم

فالشريف الكريم ينقص قدراً بالتعدى على الشريف الكريم

ولع الخمر بالعقول رمى الخمر بتنجيسها وبالتحـــريم

٥ — الإكثار من الاستعارات الطريفة والتشبيهات البارعة.

وأكثر الشعراء ولوعاً بذلك عبد الله بن المعتز . ويمكن تلخيص ماجد فى أغراضه وفنونه بما يلى :

١ — الانهماك فى غزل المذكر والتوسع فى فنونه حتى غلب على غزل المؤنث الذى كان شعراء الجاهلية وصدر الإسلام يصدرون به قصائدهم ويحلونها به ، وأشهر المغرقين فى هذا الباب أبو نواس والحسين بن الضحاك ، ولم يزل يتفاقم أمر هذا الضرب فى الشعر حتى صار جَمَعَةُ الدواوين يعقدون له باباً قائماً برأسه .

٢ — اتخاذ المجون وسيلة من وسائل الملاطفة والإضحاك وبعث السرور فى النفوس ثم الخروج به إلى حدود الإفحاش والهجر . وأول من أفحش فيه بشار وحماد عجرد وحماد الراوية ، ثم جاء أبو نواس فأربى عليهم ، ثم جاء ابن حجاج وابن سكرة الهاشمى فشرقا فيه وغربا ، وأتيا منه بما لم يسبقا إليه ولم يلحقا فيه ، مما يستنكره الذوق السليم ، وتشمئز منه الطباع المستقيمة ، ومع ذلك فقد كان البغداديون يعدون الزمان الذى جاد بابن حجاج وابن سكرة زماناً سخياً .

٣ — الاقذاع فى الهجاء والسب وهتك الحرم بما لا عهد للعرب به فى عهد جاهليتهم وصدر إسلامهم ، إلا ما كان من جرير و بعض خصومه . وأشد الشعراء اندفاعاً فى ذلك شعراء الموالى كبشار وابن الرومى .

٤ — الإغراق فى المديح والفخر والإمعان بالكذب فيهما ، وكان الذين يولعون بهذا الضرب من الشعر يقولون : « الشعر أعذبه أكذبه » وهى فرية تقض مضجع الصدق .

ومن هنا قسم أهل البديع الخروج على المألوف إلى أقسام عديدة : أولها المبالغة وأرادوا بها ادعاء ما يمكن عقلاً وعادة ، و إن كان خارجاً عن المألوف ، وثانيها الإغراق ، وهو ادعاء ما يمكن عقلاً لا عادة ، وثالثها الغلو وهو ادعاء ما لا يمكن عقلاً ولا عادة . وهذا التقسيم يشعرك بما انتهوا إليه من الخروج عن الممكنات إلى المستحيلات .

٥ — الاندفاع فى وصف الخمر والدعوة إلى شربها والتبسط فى وصف السكر والسكارى والمنادمة والندامى والذهاب فى ذلك كل مذهب . ورأس هذه الفئة أبو نواس ، فقد أتى فى هذا الباب بما لم يسبق إليه ولم يلحق فيه . نعم كان بعض شعراء الجاهلية

كالأعشى يلمون بهذا الباب إلماماً خفيفاً و بعد الإسلام لم يجرؤ على طرق هذا الباب إلا قليل من الشعراء كأبى محجن الثقفى والأخطل وأبى الهندى . أما فى هذا العصر فقد جعله الشعراء ديدنهم وقصروا عليه جل اهتمامهم ، والذى ترفع منهم عن احتساء الشمول لم يترفع عن وصف شمائلها . ومن أراد التبسط فى هذا الباب فعليه أن يرجع إلى حلبة الكميت للنواجي المتوفى سنة ٨٥٩

على أن عشاق الفضيلة وأهل التقوى لم يعدموا من يطربهم ويجتذبهم إليه بشعره و يسترق قلوبهم ببارع سحره ، فقد فتح فريق من شعراء بغداد باب الزهد والوعظ والإرشاد وتفننوا فيه وتطرقوا إلى ترصيعه بالحكم والأمثال ، وعلى رأس هذه الفئة أبو العتاهية وأبان بن عبد الحميد اللاحقى، وتبعهما الكثيرون من الشعراء ، حتى إن الحسن بن هانىء المعروف بنزعته لم يَخْلُ شعره من نفحات زهدية وعظات صوفية كقوله :

ما بال دينك ترضى أن تدنسه   وثوبك الدهر مغسول من الدنس

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها   إن السفينة لا تجرى على اليبس

وكثيراً ما اقتبس الصوفية شعر المجان من الشعراء وحوروا معناه إلى أغراضهم النبيلة ، فهذا ماجن يشبب بغلام يقول :

إن بيتاً أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا يوم تأتى الناس بالحجج

فانتزعه بعض الصوفية وقلب معناه إلى مناجاة الحق عز وجل ووضع كلمة « الميمون » بدل « المأمول » ورمز بالبيت إلى القلب. والكثير مما يتغنى به الصوفية فى خلواتهم وجلواتهم من هذا القبيل. على أن للصوفية أنفسهم شعراً يكاد يذوب رقة ولطفاً ، يرمزون فيه إلى أغراض خاصة بهم ومقاصد يعسر شرحها على غيرهم ، وهذا الضرب من الشعر لا عهد للعرب به إلا بعد أن مصرت بغداد ، وكثر فيها العباد والزهاد . وفى بغداد توسع الشعراء فى صب المعانى الفلسفية فى قوالب شعرية ، ومن أشهر المتقدمين فى ذلك صالح بن عبد القدوس ، وعلى هذه السنة جرى أبو العتاهية فى كثير من شعره ولا سيما فى مزدوجته المشهورة التى يقول فيها :

إن الشباب حجة التصابى روائح الجنة فى الشباب
إن الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أى مفسده

ومن مشاهير البغداديين الذين سلكوا هذه السبيل الحسين ابن عبد الله المعروف بابن شبل[1] البغدادى المتوفى سنة ٤٧٤

(١) ابن أبى أصيبعة (ج ١ ص ٢٤٧)

وله فى ذلك مطولات ومقطعات بارعة جداً ، فمن مطولاته قصيدته التى مطلعها :

بربك أيها الفلك المدار   أقصد ذا المسير أم اضطرار ؟

ومنها قصيدته الهمزية التى يقول فيها :

صحة المرء للسقام طريق   وطريق الفناء هذا البقاء
بالذى نغتذى نموت ونحيا   أقتلُ الداء للنفوس الدواء
قبح الله لذة لأذانا   نالها الأمهات والآباء
نحن لولا الوجود لم نألم الفقـ   ـد فإيجادنا علينا بلاء

وقد جال أبو العلاء المعرى فى هذا الميدان جولان فارس ماهر فبزّ من سبقه وأعجز من لحقه، ولم يركب هذه الطريق ركوباً جدياً إلا بعد رجوعه من بغداد ، فهل لبغداد أثر فى نزعته هذه ؟

وآخر من علمناه سلك هذه الطريق من البغداديين فى عهد بنى العباس عبد الحميد المعروف بابن أبى الحديد المتوفى عام ٦٥٥ شارح نهج البلاغة ، ومما ينسب إليه فى هذا الباب قوله :

تاه الأنام بسكرهم   فلذاك صاحى القوم عربد
من أنت يا رسطو ومن   أفلاط قبلك يا مبلد
ما أنتم إلا الفرا   ش رأى السراج وقد توقد

فدنا فأحرق نفسه ولو اهتدى رشداً لأبعد

وأهم ماحظى به الشعر من التجديد فى بغداد انصراف الفحول من الشعراء عن الوقوف على الديار والبكاء على الأطلال إلى وصف الأنهار والأشجار والأزهار والثمار ومجالس اللهو واللعب وضروب الأنس والطرب ، وإمام هذه الجماعة الحسن بن هانىء، فإنه كان يرى من النقص أن يفتتح الشاعر شعره — وهو فى بغداد بين الأنهار والأشجار — بالوقوف على الطلول المحيلة والآثار الطامسة ، ويرى من الواجب على الشاعر أن يكون واقعياً يصف شعوره وإحساساته وخلجات نفسه ويصورها تصويراً بارعاً تهتز له النفوس، فكأنه يسحرها أو يسكرها لأنه يصور لها ما تحن إليه وتحنو عليه قال :

صفة الطلول بلاغة القُدْم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وقال :

عاج الشقى على رسم يسائله وعجت أسأل عن خمارة البلد
يبكى على طلل الماضين من أسد لا در درك قل لى من بنو أسد؟

وقد تبعه فى مذهبه هذا خلق كثير ، فانصرفوا إلى وصف المشاهدات من مظاهر المدنية ، كالقصور والأنهار والحياض

والرياض والسفن ومجالس القصف . . الخ . وأشهر من جال فى هذا الميدان ابن المعتز والصولى وابن الرومى . ونشأ شعراء اتخذوا من الأحداث التافهة موضوعات أطنبوا فى شرحها وأسهبوا فى وصفها . فعلوا كل ذلك للاضحاك والإيناس، كما فعل أبو دلامة فى وصف بغلته الخبيثة الطباع ، وكما فعل الحمدونى فى وصف طيلسان ابن حرب ، وخلاصة القصة أن محمد بن حرب أهدى الحمدونى طيلساناً خلقاً ، فأخذ يصفه و يتندر فيه حتى قال فيه قرابة مائتى مقطوعة لا تخلو واحدة منها من معنى بديع ، منها قوله :

يا ابن حرب كسوتنى طيلساناً   أمرضته الأوجاع فهو سقيم
وإذا ما رفوته قال سبحا   نك محيي العظام وهى رميم

وقال :

يا ابن حرب كسوتنى طيلساناً   ملّ من صحبة الزمان وصدا
طال ترداده إلى الرفو حتى   لو بعثناه وحده لتهدى

ومن هذا القبيل تندره فى شاة سعيد التى بعث بها إليه فملأ الدنيا شعراً بوصفها .

وشىء آخر طرأ على أغراض الشعر فى بغداد وهو رثاء الأئمة الذين رحلوا إلى جوار ربهم منذ أمد بعيد ، وكان الشعراء من قبل

يقصرون الرثاء على الأموات فى حرارة المصاب . . . ومن طريف ما يحكى فى هذا الباب أن أحد الأدباء وقف عند بعض الشعراء على قصائد يرثى بها رجالاً لا يزالون على قيد الحياة فقال له : ما هذا ؟ قال : إن هؤلاء لا بد أن يموتوا ويريد أهلوهم أن نجيد فى رثائهم على البديهة وهو أمر صعب ، ولذلك أعددت هذه المراثى لهم منذ الآن .

هذا أهم ما جدّ فى بغداد من أغراض الشعر وفنونه . أما فى أوزانه وقوافيه فيمكن إجمال ما جدّ فيهما فى بغداد بما يلى :

١ — إحداث المزدوج ، وهو جعل كل شطرين على قافية واحدة ، وقد أكثر منه أبان بن عبد الحميد اللاحقى وأبو العتاهية الغزى وقد مرّ مثاله .

٢ — الإكثار من النظم فى البحور التى كان الأقدمون لا يطرقونها إلا قليلاً كالمضارع والمقتضب، وأكثر من سلك ذلك أبو العتاهية وابن المعتز .

٣ — النظم على أوزان ولدها الخليل من أوزان الشعر الأصلية وزاد عليه فيها بعض العروضيين .

٤ — النظم على أوزان اخترعها بعض قدماء الشعراء فى بغداد كمسلم بن الوليد وأبى العتاهية وأبى نواس .

وفى بغداد اخترع المواليا، اخترعته بعض فتيات البرامكة على أثر نكبتهم، وتبعها الناس فيه . وكذلك اخترع الناس أوزاناً كثيرة ولكنها كانت تنظم بألفاظ وأساليب هى إلى لغة العامة أقرب منها إلى اللغة المعربة .

أما الموشحات فإنها من مخترعات الأندلسيين وعنهم أخذها أهل المشرق فى أواخر زمن بنى العباس .

ولم يزل أمر الشعر فى بغداد تقليدياً إلى أن ظهر الشعراء المعاصرون وفى طليعتهم الأستاذان الفاضلان معروف الرصافى وجميل صدقى الزهاوى ، فانتقلا بالشعر إلى سننه القويم ، واتخذا منه خير أداة لتصوير الأفكار العصرية ودقيق الإحساسات النفسية كما اتخذا منه وسيلة لتسجيل الأحداث المهمة والكوارث الملمة، فإذا أنت تصفحت ديوان الرصافى اليوم تجده أصدق سجل لما عانته بغداد فى زمانه من آلام وما تطلعت إليه من آمال، وما ألم بالعراق خاصة وببلاد العرب عامة من أفراح وأتراح، وماقاسته الأمة من أهوال وما تقلبت فيه من أحوال، يندب ماضيها الداثر

وعزها الغابر، كما يتوجع لما تقاسيه من خيبة الآمال فى عصرها الحاضر، ويهيب بأبنائها ألا يقعدوا عن ضيم ولا يستنيموا المكروه. وكذلك فعل الأستاذ الزهاوى، فإنك إذ تصفحت شعره وجدت أنه يريد أن يدفع بالأمة إلى كل جديد ويريد منها أن تسلك إلى الحضارة كل طريق.

ولما انبثق فجر النهضة الحديثة وجدت بغداد من هذين اللسانين خير أداتين لإنهاض الهمم وشحذ العزائم. وإلهاب جذوة الحماسة فى النفوس.

هذا ولا يمكن أن تنسى بغداد أولئك الأفاضل الذين رفعوا لواء الشعر على ضفاف الفرات حيناً من الدهر ثم انتقلوا به إلى ضفاف دجلة فكان لهم فيها قدم صدق. ويأتى فى الطليعة منهم الشيخ محمد رضا الشبيبى وأخوه الشيخ محمد الباقر والشيخ على الشرقى ومحمد المهدى البصير ومحمد المهدى الجواهرى. ولا يفوتنا أن نذكر بالإكبار الشيخ عبد الحسين الأزرى الذى آزر النهضة الحديثة بقصائده المأثورة فى مواقفه المشهورة. والاستاذ الصافى نزيل دمشق

سانحــة :

وللحياة العقلية فى مدينة السلام شرح يطول ، وتاريخ تزدحم فيه الأبواب والفصول، وما ذكرناه إنما هومن قبيل الإلماع والإيماء، وما هو فى واقع الأمر إلا بمثابة زهرات من روض أريض ، وجولة قصيرة المدى فى مجال طويل عريض . وفى رأينا أن التاريخ العقلى هو التاريخ الحى الخالد الذى يحمل معه الشاهد ، وماسواه من التاريخ فأكثره يدور على الاعتزاز بالجيوش ، وقتل النفوس ، وثلّ العروش ، والتحكم فى الرقاب ، ومصادرة الحريات ، واجتراح الموبقات ، واقتراف المخزيات ، والتكالب على الحطام ، والتغالب على السلطان الزائل ، والجاه الزائف ، أما ثمار النهى ، ونتاج الأفكار فإنها الوجه المشرق من التاريخ الذى ينير للانسانية منهاجها ، ويصف لها علاجها ، ويسمو بها إلى مثلها العليا ، ومراتبها القصوى .

ذهبت فتوحات الإسكندر وذهبت معها معالمها وآثارها ، وبقى منطق أرسطو حياً على الدهر ، ينير العقول ويغذى النفوس، وطمست الأيام معالم مدينة السلام ، فمحت آثار قصور المنصور والأمين والمأمون ، وبقى فقه ابن ثابت وابن حنبل يقتطف منهما

العباد زاد المعاد ، ويعتمد عليهما الحكام فى ديار الإسلام ، فى ضبط مقاييس الفصل بين الخصوم وإقامة موازين العدل بين الناس . وطاحت الطوائح بتلك الثروات الطائلة ، والرياش الفاخرة ، والنعيم الوارف الظلال : أما الثروة العقلية فقد صارعت الأيام، وغالبت الأحداث ، وناهضت الكوارث ودافعت المصائب حتى كتب لها الظفر ، وكان لها الغَلَب ، فعاشت على الرغم من أنف الزمن تتلألأ نوراً . وتتيه جمالاً وجلالاً ، فالكثير من آثار أولئك العلماء والأدباء والحكماء من البغداديين لا يزال زينة هذه الحياة وجمالها وزهرتها ، وسيبقى خالداً على الزمن ما بقى اللسان المبين غذاء للعقول الراجحة ، ودواء للأهواء الجامحة ، ورَواء للنفوس الظامئة ، ومعراجاً للعزائم الماضية والهمم العالية ، والأرواح الصافية .

مؤلفات علميـة

للاستاذ أمين ابراهيم كحيل

صـ	
٢٠	العلم فى الحرب

للاستاذ حسن عبد السلام

٢٥	الأغــذية
٢٥	ذخيرة العطار
١٥	الصناعات الـكيمائية فى مصر

للاستاذ محمد عاطف البرقوقى

٤٠	تبسيط اللاسلـكى
٧	المهندس الصغير
٣	قصص علماء الطبيعة
٥	النقل البرى } للاطفال
٥	النقل البحرى } للاطفال

ملتـزم الطبع والنشر
دار المعـارف

مؤلفات

الأستاذ احمد الصاوى محمد

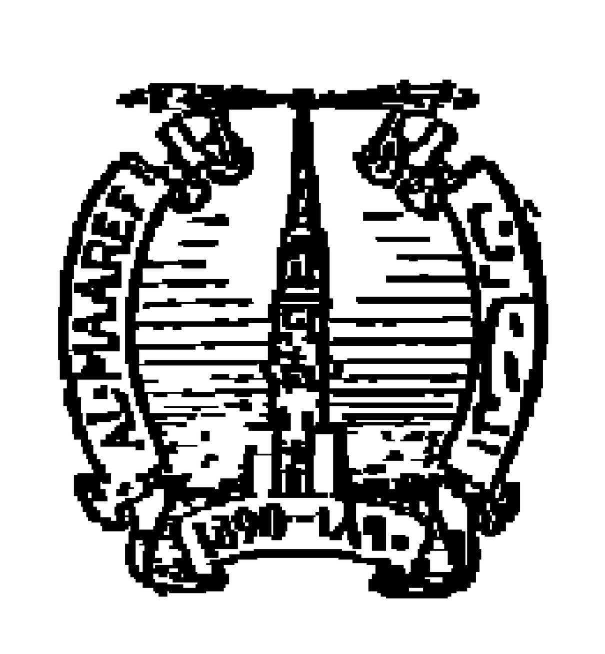
مدرسة النبوغ

ص		
٢٥	التلميذة الخالدة	(حياة مدام كورى)
٢٥	حياة بلزاك	(القصصى الأعظم)
٢٥	حياة شللى	(قبور فى جنة الخلد)
٢٥	حياة بيرون	(دون جوان)
٢٥	عرش وقلب	(لويس الرابع عشر)

مدرسة المجتمع

٢٠	شباب الفولجا
٢٠	جرائم شرقية وغربية
٢٠	العاصية
٢٠	الموجة العذراء
٢٠	حياة قلب
٢٠	رجال ونساء ١
٢٠	» » ٢
٢٥	أنا الشرق

ملتـزم الطبع والنشر
دار المعارف



دار المعارف
للطباعة والنشر

المحل الرئيسي بالقاهرة : ٧٠ شارع الفجالة
فرع الاسكندرية : ٢ ميدان محمد على
وكالة فلسطين وشرق الأردن : شارع مأمن الله بالقدس
ولها متعهدون ببيروت ودمشق وبغداد

اقرأ

سلسلة كتب شهرية للجيب يشترك في تأليفها
أشهر الكتاب في مصر وسائر البلاد العربية
تصدرها دار المعارف بمصر

آراء بعض كبار الأدباء

- «مشروع جليل القدر كبير الفائدة عظيم الأثر في تغذية الأدب والثقافة» ...
- «زاد فكري في مختلف أبواب العلم والأدب يستسيغه الجمهور وترضى عنه الخاصة» ...
- «هذه السلسلة جهد في سبيل نشر الثقافة [illegible] الشعب وإزالة الفروق بين الطبقات» ...

الثمن بالنسخة

مصر	٥٠ مليما	سوريا ولبنان	[illegible]
السودان	٥٥ مليما	العـراق	[illegible]

فلسطين وشرق الأردن ٦٠ مـلا